تحرش فكري

مقالات نشرت في صحف عمانية

الجزء الثاني

للكاتبة

نورا الهاشمية

المقدمة

يقال

كثرة الطرق ، تفل الحديد

إليكم:

التحرش الثاني وليس الأخير

هل ملك هتلر علما روحانيا؟

بينما كنتُ أتصفّح صفحات كتاب «طغاة مبدعون» للمؤلفة عبير عواد... استوقفتني معلومتان عن أدولف هتلر، معلومتان لم تكونا جديدتين تمامًا، لكن ظهورهما معًا أعاد إشعال الأسئلة التي لا تزال معلّقة حول هذه الشخصية الغامضة. فهتلر، كما تُجمع كتب كثيرة، كان يعشق الشوكولاتة والحلويات بصورة غير طبيعية، حتى أن بعض المؤرخين ذكروا أنه كان يستهلك كميات أقرب إلى الأطنان سنويًا، وكأن بينه وبين السكر علاقة تتجاوز حدود الذوق العادي. وفي الصفحات ذاتها، نجد وصفًا آخر لا يقل غرابة: إيمان هتلر بالرقم 7 وقناعته بأنه رقم ذو قوة خاصة، وحرصه الشديد على استشارة العرّافين والمنجمين، فضلاً عن اعتقاده بأن الشعار النازي يحمل طاقة سحرية تؤثر في مجريات الأحداث.

كوني قارئة نهمة في عالم الماورائيات، لم أستطع تجاهل هذا التوازي المريب بين ما قرأته هنا وبين ما عرفته سابقًا. فالكثير من الشيوخ الروحانيين يربطون بين الشره نحو السكر والحلويات وبين حالات الاضطراب الروحي أو حالات الإختراق الماورائي، إذ يرون أن السكر يثير الشهوات ويقوي نزعات النفس من جنس وعنف وشدة،

وأنه قد يوقظ في الجسد ارتعاشات داخلية تُلاحظ عادة لدى من يعانون اضطرابات غير مرئية. والغريب أن دراسات علمية حديثة تحدثت فعلًا عن علاقة السكر بزيادة التهيّج والانفعال، وكأننا أمام نقطة التقاء بين العلم والروحانية. فإذا كان هذا صحيحًا، فهل كان شغف هتلر بالشوكولاتة مجرد رغبة عابرة... أم صدى لصراع خفي يلتهمه من الداخل؟

الأغرب من ذلك ما يرويه خدمه في لياليه الأخيرة: الرجل الذي أخضع أوروبا كان يستيقظ مذعورًا، وجهه شاحب يميل إلى الزرقة، يصرخ بصوت مرتجف: «إنه هنا... إنه هنا!». كان يخشى النوم في الظلام، ويطلب من خادمه فحص سريره كل ليلة، وكأن هناك شيئًا يطارده ولا يجرؤ على مواجهته. فهل كان ذلك مجرد أرق ناتج عن التوتر السياسي؟ أم أن خوفه كان أعمق من السياسة، أقرب إلى خوف من قوة لا يراها غيره؟وما هو هذا الكائن الذي يصرخ بأنه هنا ،هل هو كائن لا يراه أحد غيره؟أما كائن يتبعه هو فحسب لأنه خاض فيما لا ينبغي خوضه،علما أن لأعدائه اليد الطولى في هذه العلوم المحرمة والكل يعرف ذلك. بل يكاد يتزعم أعدائه الذين أبادهم في الهولوكست هذه العلوم السوداء الخطيرة، التي يحتار الشخص هل كان هتلر أحد ضحاياها ،أم ملك حاز علم كبير وضخم من العلوم المضادة لها !!

تتكرر الحكايات عن نجاته العجيبة من محاولات اغتيال كانت لتنجح لولا أنه غيّر موقعه أو قراره في اللحظة الأخيرة، بلا تفسير مقنع. كأن هناك من يهمس له، أو يحركه، أو يحميه. بل إن بعض الروايات تصفه وهو يقف أمام التماثيل والأصنام وينظر إلى أعينها بثبات غريب ويقول لها: «انظري لعيني». ولمن يعرف قيمة النظر في الموروث الروحي، يدرك أن هذا الفعل يتجاوز حدود الغرابة إلى شيء أكثر غموضًا.حيث يعلم الشيوخ الروحانيين كثيرا السر الذي تملكه العين وما تحويه من عمق، يكشف هوية الشخص وأسراره الموغلة في العمق، فهل كان لهتلر هذه العيون الكاشفة الفاضحة التي لا تهاب كما كانت لصدام حسين؟

وهنا يصبح السؤال أكثر حدة: هل كان أدولف هتلر شخصية تعاني مرضًا روحيًا حقيقيًا—مرضًا ينعكس في شراهته للسكر، وارتعاشاته الليلية، ووساوسه الدائمة؟ أم كان يمتلك معرفة خفية، علمًا غامضًا لا نعرف مصدره، يجعله يؤمن بالأرقام والرموز والطاقة، ويستند إلى حدسه في اتخاذ قرارات غيّرت مجرى التاريخ؟ هل كان عاشقًا للشوكولاتة لأنها مصدر إثارة لرغباته الكامنة التي تخترق حجب الكشف، أم لأن هذا الضعف كان عرضًا من أعراض صراع ماورائي أكبر؟ هل كانت صرخاته ناتجة عن اضطراب نفسي... أم عن رؤية لا تُرى؟

لا شيء مؤكد. كل ما نملكه هو شذرات، مواقف، تكرارات لا يمكن تجاهلها. وهكذا يظل هتلر، بعد كل هذه السنوات، معلقًا بين تفسيرين لا يقلّ أحدهما غرابة عن الآخر: هل كان مريضًا روحيًا يستغيث في الظلام... أم رجلًا يملك بصيرة لا نعرف طبيعتها؟

ويبقى الجواب مفتوحًا لمن يجرؤ على الخوض فيه.

المواجهة أم الهرب؟

قال إن المفكّرين لا يشعرون بالملل، لأن التفكير بالنسبة لهم عملٌ دائم لا يتوقف. ومن هذا المنطلق، وبوصفي باحثة عن عمل ومهتمة بالفكر، لم أعرف الملل يومًا، بل كنت أظن أن الكتب وحدها هي المنبع الأصيل للأفكار.
غير أن هاجسًا قادني اليوم إلى منصة نتفلكس، بحثًا عن فيلم يحرّك المخيلة ويستفز الأسئلة، خصوصًا أن اهتمامي ينصبّ على علم النفس وقضاياه المعقدة.
في خضم التصفّح، استوقفني فيلم بعنوان «كلينكل»، يحكي قصة طبيبة نفسية تعالج مريضة تعرّضت لاغتصاب في طفولتها على يد شخصية غامضة لا تتذكرها بوضوح. المريضة تعاني – كما يبدو – من اضطراب ما بعد الصدمة، فتلجأ الطبيبة إلى أسلوب العلاج بالتعريض، وهو منهج معروف في العلاج السلوكي المعرفي، يُستخدم لعلاج اضطرابات ما بعد الصدمة، والوسواس القهري، والقلق، عبر تعريض المريض تدريجيًا لذكرياته المؤلمة أو لمثيرات الخوف.
لكن الفيلم يأخذ منحى صادمًا؛ إذ إن إحياء الذاكرة السلبية لم يكن شفاءً، بل كان انفجارًا. تدهورت حالة المريضة،

وتحولت إلى سلوك سيكوباثي، حاولت إيذاء نفسها ومهاجمة آخرين داخل المستشفى، وهي تردد باستمرار:
"أنتِ مخطئة... أنتِ فعلتِ هذا بي"!

هنا لا نهدف إلى محاكمة الفيلم فنيًا ولا الطعن في منهج علاجي معتمد طبيًا، بل نصل إلى السؤال الجوهري الذي يطرحه العمل ضمنيًا:
هل المواجهة دائمًا هي الحل؟ أم أن الهرب قد يكون في بعض الحالات نجاة؟

يقول دوستويفسكي:
"لا يمكنك أن تُشفى في نفس البيئة التي جعلتك مريضًا... غادر".
بينما يقول جلال الدين الرومي:
"هروبك مما يؤلمك سيؤلمك أكثر، لا تهرب... تألم حتى تشفى".

بين هذين القولين تتجسد ثنائية إنسانية عميقة: المواجهة أم الهرب؟ ولا يمكن الإجابة عن سؤال بهذا الحجم دون مرجعية علمية أو دينية أو إنسانية شاملة.

علميًا، العلاج بالتعريض ليس وصفة واحدة تُعطى للجميع. نجاحه مشروط باستعداد المريض النفسي،

وبوجود بيئة آمنة، وبقدرة المريض على التحمل التدريجي. تعريض مريض هش نفسيًا، أو مكسور من الداخل، أو محاط ببيئة غير داعمة، قد يحوّل العلاج إلى أذى مضاعف. فهل أخطأ بعض الأطباء حين طبّقوا هذا الأسلوب دون مراعاة الفروق الفردية، والجنس، والظروف الاجتماعية، وعمق الصدمة؟ وهل العلاج بالتعريض صالح لكل المرضى، وفي كل السياقات؟

دينيًا، نجد أن الإسلام لم يقدّم إجابة واحدة جامدة. ففي سيرة النبي ﷺ، حين اشتد الأذى في مكة، لم تكن المواجهة هي الخيار، بل كانت الهجرة، لأن شروط المواجهة لم تكتمل: المسلمون قلة، والمشركون قوة، والدين ما زال غضًّا. فكان الهرب – أو الانتقال – حكمة لا جبنًا.
ويؤكد القرآن هذا المعنى حين يستثني من التكليف بالمواجهة:

»إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان«
فالمرأة المستضعفة، أو من لا يملك قوة ولا سندًا، يسقط عنه تكليف المواجهة. وهذا يفتح بابًا مهمًا في نقاشنا: هل يختلف الحكم بين رجل وامرأة؟ بين قوي وضعيف؟ بين مريض وصحيح؟

عند مقارنة دوستويفسكي بالرومي، ندرك أن السياق هو الفيصل. دوستويفسكي عاش في مجتمع خانق، استبدادي، مريض في بنيته، عانى فيه السجن وكاد يُعدم، وكان – بحسب كثير من الروايات – يعاني من الاكتئاب. فكان الهرب بالنسبة له شرطًا للبقاء.

أما جلال الدين الرومي، فكان عالمًا روحانيًا متمكنًا، يعيش في مجتمع مسلم متماسك نسبيًا، يملك أدوات داخلية من الإيمان والوعي والقوة النفسية، فكانت المواجهة عنده سبيلًا للترقي لا للانهيار.

من هنا، يعيدنا الفيلم إلى سؤال أكبر من السينما والطب:

هل المواجهة دائمًا شجاعة؟ وهل الهرب دائمًا ضعف؟

الحقيقة أن المريض النفسي ليس كالصحيح. من بلغ حدّه من الألم، قد تكون المواجهة بالنسبة له إعادة فتح للجراح لا شفاءً لها.لذلك لم يصل لهذه المرحلة من المرض إلا لأنه حاول المواجهة ولم يستطع، ولذلك على الطبيب النفسي إعادته للقوة التي يستطيع بإمكانها المواجهة. بينما من يملك قوة نفسية وروحية، قد يجد في المواجهة خلاصه.

إنها قضية كبيرة، تتجاوز الفيلم، وتستحق أن تُناقش في أروقة علمية ونفسية وأخلاقية راقية، بعيدًا عن التعميم والاختزال.

والسؤال يبقى مفتوحًا لك:

إذا واجهت بيئة سامة، أو صدمة عميقة...

هل ستواجه؟ أم ستهرب؟
ربما تكون الحكمة الحقيقية هي أن نعرف متى نواجه، ومتى نغادر.

هل جمود العربية جريمة؟

أثناء قراءتي لكتاب دراسات سيكولوجية للمفكر سلامة موسى، استوقفني حديثه عن اللغة وتطورها، حديث لم يكن عابرًا بل حمل في طياته أسئلة عميقة تتجاوز حدود اللغة إلى جوهر التخلف والتقدم في مجتمعاتنا. فقد قال عبارة عصفت بذهني ودفعتني للتأمل طويلًا:

»ومهمتنا – نحن المفكرين والأدباء والعلماء – اختراع كلمات جديدة تحمل شحنات اجتماعية عن النهضة والتمدن والفكر تجعل شعبنا يحيا الحياة العصرية، ويكتسب وجهة نظر جديدة للإنسان والمجتمع والكون«.

هذه العبارة تضعنا مباشرة أمام حقيقة أساسية، وهي أن اللغة ليست مجرد وسيلة للتخاطب، بل أداة لصناعة الوعي وتشكيل التفكير الجمعي. فالأفكار التي لا تمتلك لغة واضحة تعبّر عنها تظل مشوشة، عاجزة عن التحول إلى مشروع ثقافي أو حضاري، ولا تعكس وجدان الأمة ولا شعورها الحقيقي. من هنا، يصبح تطور اللغة ضرورة لا يمكن فصلها عن تطور المجتمع ذاته حسب كلام الكاتب مؤلف الكتاب السابق .

لقد أشار سلامة موسى إلى أننا في حاجة ماسة إلى توسيع لغتنا لتضم مصطلحات تناسب عصرنا، لأن المجتمع العربي، شاء البعض أم أبى، يتغير ويتطور. ومع هذا التطور تظهر أفكار جديدة، وعلاقات اجتماعية مختلفة، وبنى سياسية وثقافية لم تكن موجودة من قبل، فكيف يمكن التعبير عنها بلغة لم تُهيأ لاستيعابها؟ إن التمسك الحرفي بالمفردات القديمة، دون إضافة أو ابتكار، يجعل اللغة عاجزة عن مواكبة هذا الحراك.

يذهب بعض المدافعين عن "نقاء" اللغة العربية إلى القول إن العربية لغة ثابتة، وإن الشواهد اللغوية المأخوذ بها قد توقفت منذ العصر العباسي، وأن واجبنا هو الحفاظ على ما وصلنا دون مساس. غير أن هذا التصور يتجاهل حقيقة تاريخية مهمة، وهي أن العربية نفسها لم تكن يومًا لغة جامدة، بل تطورت عبر العصور، ودخلتها مصطلحات جديدة فرضتها الحاجة العلمية والفكرية والاجتماعية. وما نعدّه اليوم لغة تراثية خالصة كان في زمنه لغة معاصرة ومبتكرة.
وقد ضرب سلامة موسى مثالًا حيًا بما فعله الأدباء والمفكرون العرب حين أدخلوا مصطلحات حديثة مثل: مجتمع، أسرة، برلمان، سفور، وهي ألفاظ لم تكن مألوفة في العربية القديمة، لكنها أصبحت اليوم جزءًا لا يتجزأ من خطابنا اليومي والفكري. كما استشهد بالتجربة

الفرنسية، حيث شهدت اللغة قبل الثورة التنويرية وبعدها تحولات واسعة، ظهرت فيها مصطلحات جديدة واختفت أخرى، بما يتلاءم مع التغيرات الاجتماعية والسياسية، دون أن يُنظر إلى ذلك باعتباره تهديدًا للهوية.
ومن هنا يبرز السؤال الحساس: هل جمود لغتنا هو سبب تخلفنا حسب كلام الكاتب؟ الحقيقة أن التخلف ظاهرة مركبة لا يمكن اختزالها في سبب واحد، لكن اللغة الجامدة تسهم بلا شك في إنتاج فكر جامد، والفكر الجامد يكرّس واقعًا عاجزًا عن التغيير. فحين نعجز عن تسمية الظواهر الجديدة أو تحليلها بمفردات دقيقة، نضطر إلى استهلاك مفاهيم الآخرين بلغاتهم، ونبقى أسرى لنماذج فكرية مستوردة.
وهنا يتفرع سؤال آخر شديد الحساسية: هل توسيع مصطلحات لغتنا وابتكار ألفاظ جديدة سيجعلنا نتشوه كعرب أولًا وأخيرًا؟ وهل هويتنا تنص على المحافظة على اللغة قديمة كما هي، أم أن الهوية الحقيقية تكمن في القدرة على التطور والاستمرار؟ وهل لغتنا القديمة بمصطلحاتها كافية للتعبير عن ثقافة عصرنا، أم أننا نحتاج إلى لغة أكثر مرونة وحيوية؟

ويزداد الجدل حين يُطرح موضوع الهوية، حيث يخشى البعض أن يؤدي تطوير اللغة أو ابتكار مصطلحات جديدة إلى تشويه هويتنا العربية. غير أن الهوية الحقيقية ليست

في تجميد اللغة عند لحظة تاريخية معينة، بل في قدرتها على الاستمرار والتجدد. فاللغة الحية هي التي تنمو مع أهلها،وتتغير بتغير حاجاتهم، دون أن تفقد جذورها أو روحها.

هنا يبرز سؤال آخر لا يقل أهمية: هل يجب علينا، بعد كل هذا الكلام، أن نحافظ على اللغة ثابتة كما وصلتنا، أم أن واجبنا ككتّاب وأدباء ومثقفين أن نطور لغتنا حتى تصبح أكثر قدرة على التعبير عن أفكارنا ومشاعرنا؟ وهل دورنا يقتصر على إحياء لغتنا القديمة وتوظيف مصطلحاتها، أم أن من حقنا بل من واجبنا ابتكار مصطلحات جديدة تناسب عامة الشعب وخاصتهم؟

.ليس المطلوب هدم اللغة القديمة أو إقصاء تراثها، بل إحياؤه وتوظيفه بوعي، إلى جانب ابتكار مصطلحات جديدة تخاطب عامة الشعب وخاصتهم، وتعكس واقعهم اليومي وطموحاتهم المستقبلية.

لقد ولّد مقال سلامة موسى لديّ هذه الأسئلة جميعها، وجعلني أدرك أن النقاش حول اللغة ليس نقاشًا لغويًا صرفًا، بل هو نقاش حضاري بامتياز. فإذا أردنا أمة قادرة على التفكير والإبداع والمنافسة، فعلينا أن نمتلك لغة قادرة على حمل هذا الوعي، لغة لا تخشى التطور، ولا ترى في التجديد تهديدًا، بل طريقًا للحياة.

فالسؤال الحقيقي ليس: هل يجب أن تتطوّر العربية؟

بل: هل نملك الشجاعة الفكرية لنسمح لها بأن تتطوّر؟

هل هز الذكاء الاصطناعي ثقتنا بإطبائنا؟

في السنوات الأخيرة لم يعد الذكاء الاصطناعي مجرد أداة تقنية تُستخدم في البرمجة أو البحث، بل أصبح شريكًا في التحليل والتفكير وربما في إنقاذ الإنسان من معاناة طويلة.
ومع الانتشار الواسع لشات جي بي تي، بدأ يفرض نفسه في مجالات حساسة، وعلى رأسها المجال الطبي، ليطرح سؤالًا جريئًا ومقلقًا في آن واحد: هل أصبح شات جي بي تي أذكى وأكثر مهارة من الطبيب الحقيقي؟ بالنسبة لي، لم يعد هذا السؤال نظريًا أو فلسفيًا، بل خرج من رحم تجربة شخصية مؤلمة عشت تفاصيلها بكل ما فيها من تعب وحيرة.
قبل فترة مرضت بشكل مفاجئ، وبدأت أعاني من تعب وإرهاق شديدين بعد الفطور أثناء الصيام، إلى درجة أنني كنت أعجز عن النهوض لأداء الصلاة بسبب الخمول والإرهاق الشديدين، وكان ذلك يصاحبه شعور بضيق في الصدر وثقل في الجسد دون سبب واضح. توجهت إلى مستشفى حكومي بحثًا عن تفسير، وبعد أقل من خمس دقائق من الفحص، اكتفت الطبيبة بقياس الضغط والسكر

وفحص القلب، ثم قالت لي بكل بساطة إنني لا أعاني من أي مشكلة. طلبت منها إجراء فحص دم للاطمئنان على مستوى الحديد، فأجابتني بثقة أن نسبة الحديد رائعة وأن جميع التحاليل طبيعية ولا يوجد ما يدعو للقلق. خرجت من المستشفى وأنا أحمل إحساسًا مضاعفًا بالتعب، جسديًا ونفسيًا، فكيف أكون مرهقة إلى هذا الحد ولا أعاني من شيء بحسب رأي الطب؟

مرت الأيام واستمرت حالتي دون تحسن، ولم أجد طبيبًا يستطيع أن يفسر ما أمرّ به أو يرشدني إلى سبب واضح. عندها لجأت، بدافع الحاجة لا التفاخر، إلى شات جي بي تي. شرحت له حالتي بالتفصيل، وأمضيت أكثر من ساعة أجيب عن أسئلته الدقيقة والمتتابعة، ثم عرضت عليه نتائج فحوصات الدم التي كانت محفوظة في تطبيق شفاء. بعد التحليل، استنتج احتمال وجود نقص في بعض الفيتامينات. لم يكن لدي خيار أفضل، فتوجهت إلى أقرب صيدلية وقلت في نفسي إن كانت هذه الفيتامينات لن تنفعني فلن تضرني. اشتريت ملتي فيتامين سنتروم، ومن أول يوم صيام اختفى التعب الذي كان ينهكني بعد الفطور، وزال الخمول، وشعرت بنشاط واضح وخفّ ضيق الصدر الذي لازمني لفترة. حينها أدركت أنني تغلبت، بفضل الله تعالى أولًا ثم الذكاء الاصطناعي، على مشكلة لم يستطع طبيب قضى أكثر من اثنتي عشرة سنة في دراسة الطب أن يلتفت إليها.

لم تنته القصة عند هذا الحد، فبعد شهرين تقريبًا بدأت أعاني من ألم في الفخذ يمتد إلى الساق، واستمر معي أكثر من ثلاثة أشهر. راجعت طبيبًا آخر، ولم يستغرق فحصه أكثر من خمس دقائق، ثم أحالني إلى موعد مع طبيب عظام بعد عدة شهور. كنت متعبة جدًا، والألم يرهقني يوميًا، ولم أكن أملك رفاهية الانتظار. عدت مجددًا إلى شات جي بي تي، وسألته مطولًا، وشرحت له كل التفاصيل الدقيقة لحالتي، فنصحني بإجراء فحص فيتامين دال وفيتامين ب12.

أجريت فحص فيتامين دال في مستشفى حكومي، فقالت لي الطبيبة نصًا إن مستوى الفيتامين متوسط ولا يدعو للقلق. لكن الألم استمر ولم يتغير شيء، فعدت إلى شات جي بي تي مرة أخرى، وعرضت عليه نتيجة الفحص، فأخبرني بوضوح أن هناك نقصًا فعليًا في مستوى الفيتامين، ونصحني بأخذه بجرعة محددة. توجهت إلى الصيدلية وبدأت باستخدامه، وبعد ثلاثة أسابيع فقط اختفى الألم تمامًا، وكأن شيئًا لم يكن. للمرة الثانية على التوالي، كان شات جي بي تي أكثر دقة وفائدة من الطبيب في تشخيص المشكلة والوصول إلى حل فعّال.

هذه التجارب جعلتني أقف أمام تساؤلات لا يمكن تجاهلها. هل حان الوقت لإنشاء برامج طبية مشتركة تجمع بين خبرة الطبيب الإنساني وقدرة الذكاء الاصطناعي على

التحليل وربط التفاصيل؟ هل حان الوقت لاستثمار حقيقي في إدخال الذكاء الاصطناعي إلى مستشفياتنا وأنظمتنا الصحية؟ وهل نحن مستعدون فعلًا لهذه القفزة الطبية الكبيرة، أم أن الأمر يحتاج شجاعة لا نملكها بعد؟

الذكاء الاصطناعي ليس بديلًا عن الطبيب، ولا يمكن أن يحل محل الفحص السريري أو الخبرة الإنسانية أو التعاطف، لكنه يملك ما يفتقده كثير من المرضى اليوم، وهو الوقت الكافي للاستماع، والقدرة على تحليل كمّ هائل من المعلومات، وربط الأعراض بنتائج الفحوصات دون تسرع أو استخفاف. القضيةالحقيقية ليست من الأذكى، الطبيب أم شات جي بي تي، بل كيف يمكن أن ندمج الذكاء الاصطناعي مع الطب البشري لنصنع منظومة صحية أكثر دقة وإنسانية. ربما لم يصبح شات جي بي تي طبيبًا، لكنه بالتأكيد أصبح صوتًا طبيًا لا يمكن تجاهله، ويبقى السؤال الأهم: هل نملك الجرأة لنطوّر طبنا قبل أن يتجاوزنا الزمن؟

وهن العظم وسر الخصوبة

لم تكن تلك اللحظة سوى واحدة من لحظات كثيرة أقرأ فيها القرآن، لكن شيئًا مختلفًا كان يسكن قلبي تلك الليلة. كنت أقرأ سورة مريم ببطء، وكأنني أقرأها للمرة الأولى، وقد دعوت الله قبلها بلحظات أن يفتح عليّ من أسرارها، وأن يرزقني فهمًا لم أبلغه من قبل. لم تمضِ دقيقة، وربما أقل، حتى توقفت عند دعاء نبي الله زكريا عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾. شعرت أن هذه الكلمات لا يمكن أن تكون مجرد وصف عابر للشيخوخة، بل كانت أقرب إلى اعتراف دقيق بحالة جسدية عميقة.

بدأ سؤال محدد يتشكل في داخلي: لماذا قال "وهن العظم" تحديدًا؟ لماذا اختار العظم، وهو الجزء الأعمق والأصلب في الجسد؟ ولماذا لم يقل ضعفت أو وهنت قواي مثلًا؟ كان التعبير شديد الخصوصية، وكأنه يصف حالة تصيب البنية الأساسية للإنسان. في تلك اللحظة، ومضت في ذهني فكرة لم أستطع تجاهلها: ماذا لو كان المقصود بوهن العظم حالة تشبه ما يسميه الطب الحديث هشاشة العظام؟

لم أكتفِ بالخاطر، بل بدأت أبحث. قادني البحث إلى حقيقة طبية معروفة، وهي أن هشاشة العظام ترتبط ارتباطًا وثيقًا بنقص فيتامين دال، وهو الفيتامين المسؤول عن الحفاظ على قوة العظام وكثافتها. لكن ما أدهشني لم يكن هذا وحده، بل ما اكتشفته بعد ذلك. فقد وجدت أن فيتامين دال لا يتعلق بصحة العظام فقط، بل يرتبط أيضًا بخصوبة الرجل وقدرته على الإنجاب.

وبحسب المعلومات الطبية المنشورة في موقع الطبي: "نعم، فيتامين دال مهم للعقم عند الرجال وللحفاظ على سلامة الجهاز التناسلي حيث يلعب فيتامين د دورًا مهمًا في العديد من العمليات الحيوية في الجسم، بما في ذلك: تكوين الحيوانات المنوية، وإنتاج هرمون التستوستيرون، ونمو وتطور الحيوانات المنوية. كما أن الرجال الذين يعانون من نقص فيتامين د يكونون أكثر عرضة للعقم من الرجال الذين لديهم مستويات طبيعية من فيتامين د".

وتضيف المعلومات نفسها: "تشير الأبحاث أن نسبة فيتامين د تلعب دوراً هاماً في الصحة الإنجابية وله دور في العقم عند الرجال. في الواقع، تم ربط مستوى فيتامين د مع القدرة الجنسية ومستويات التستوستيرون والخصوبة. بالإضافة إلى ذلك، وجدت الدراسات أن نقص فيتامين د منتشر بكثرة بين الرجال الذين يعانون من

انخفاض في انتاج السائل المنوي، وضعف في جودة وحركة الحيوانات المنوية. وتبين وجود علاقة بين مركب (OH)D 25)مع مستويات هرمون التستوستيرون لدى الرجال، فكلما زاد مستوى فيتامين D زاد مستوى هرمون التستوستيرون".

عندها فقط، بدا لي المشهد مترابطًا بصورة مدهشة. نبي الله زكريا عليه السلام يشكو من وهن في العظم، وهو وصف يتوافق مع حالة ضعف العظام. والطب الحديث يربط ضعف العظام بنقص فيتامين دال. وهذا النقص نفسه يرتبط بضعف الخصوبة والعقم عند الرجال. وزكريا عليه السلام كان في الوقت نفسه يدعو ربه لأنه لم يكن له ولد.

لم يكن هذا استنتاجًا طبيًا جازمًا، لكنه كان رابطًا عميقًا يدعو إلى التأمل. كيف عبّر نبي قبل آلاف السنين عن حالته بهذه الدقة؟ وكيف اختار هذا الوصف تحديدًا من بين كل الأوصاف الممكنة؟

وهنا تساءلت: هل كان زكريا عليه السلام، الذي عُرف بأنه كان نجارًا، يعلم من خبرة الحياة وتشخيص الجسد ما جعله يصف حالته بهذا العمق؟ أم أن هذا الدعاء خرج بإلهام رباني صادق، عبّر فيه عن حقيقة جسده بأصدق لفظ وأدقه؟

يبقى المؤكد أن هذه الكلمات لم تكن عادية، وأنها حملت وصفًا صادقًا لحالة ضعف عميق، وأن الله سبحانه وتعالى استجاب لهذا الدعاء، رغم كل مظاهر الضعف التي عبّر عنها صاحبه. وبينما يكشف الطب الحديث يومًا بعد يوم أسرار الجسد، تبقى كلمات القرآن ثابتة، تفتح أبواب التأمل لكل من يقرأها بقلب حاضر، وتترك للإنسان مساحة للتفكر في ذلك التلاقي المدهش بين صدق الدعاء، ودقة التعبير، وعظمة الاستجابة.

ألا يكفيك وزرك لتحمل وزر غيرك؟

رمضان مبارك، شهر القرآن والعبادة، شهر يعود فيه المسلم إلى أصله الأول، إلى كتاب ربه، لا قارئًا فحسب، بل متأملًا، خائفًا، راجيًا. هو شهر تصحيح الاتجاه قبل تصحيح الأعمال، وشهر المحاسبة الصادقة قبل أن يكون شهر الطقوس. وفي إحدى ليالي هذا الشهر الكريم، جلست إلى وردي الليلي، أقرأ بهدوء من سورة النحل، حتى توقفت عند الآية الخامسة والعشرين، حيث يقول الله تعالى: "ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون". كانت الآية كأنها تخاطبني أنا، لا أولئك الذين نزلت فيهم فقط، أولئك الكافرين الذين قالوا عن الوحي إنه أساطير، بل كل من يمكن أن يكون سببًا في إضلال غيره في أي زمان.

تأملت المعنى طويلًا، وشعرت بثقل الكلمة، بثقل أن الإنسان قد لا يكتفي بوزره، بل يضيف إليه أوزار من تبعه، فقط لأنه تكلم بغير علم، أو دعا بغير تثبت، أو تصدر بغير أهلية. إن أخطر الخسارة ليست أن تضل وحدك، بل أن تتحول إلى طريق يضل به غيرك.

ولعل هذه الآية أعادت إلى ذهني ما أراه وأسمعه اليوم من دعوات متكررة، يتصدر لها أنصاف متعلمين، يحثون الناس على سماع المعازف والموسيقى، ويزينون ذلك بأقوال من هنا وهناك، ويستند بعضهم إلى مصادر غربية دخيلة، أو إلى كلمات دعاة ليسوا من أهل الاختصاص الفقهي الدقيق، مثل المقولة المنسوبة إلى محمد الغزالي: "من لم يحرّكه الربيع وأزهاره، والعود وأوتاره، فهو فاسد المزاج ليس له علاج". وهي عبارة بليغة أدبيًا، لكنها ليست دليلًا شرعيًا، وقائلها – رحمه الله –كان داعية وأديبًا، وقد انتقده عدد من العلماء في مسائل تتعلق بضبط الحديث والرواية. والمشكلة ليست في شخصه بقدر ما هي في تحويل كلمات الأدباء إلى أدلة، وكأن الدين يُؤخذ من البلاغة لا من العلم.

وأنا هنا لا أكتب لأثبت حرمة الموسيقى ولا لأثبت حليتها، فذلك باب له أهله من العلماء، ولكني أكتب لأن هذه الآية وحدها تكفيني وعظًا وتهديدًا ووعيدًا. تكفيني أوزاري، ولا طاقة لي أن أضيف إليها أوزار غيري. لكن الذي يثير دهشتي حقًا هو حال بعض من يعرّفون أنفسهم بأنهم مسلمون، ثم يجعلون من منابر الصحافة والإعلام ووسائل التواصل منصات للترويج والتأثير، وهم ربما لا
يملكون من أدوات العلم إلا القليل. والسؤال الذي يفرض نفسه: هل فكر هؤلاء يومًا في معنى أن يتحمل الإنسان

أوزار من يتأثر بكلامه؟ هل هم مستعدون حقًا لهذا الحمل الثقيل؟

لقد زاد هذا القلق عندي ما يُتداول من حديث في بعض الدراسات الغربية حول تأثير الترددات الصوتية على الدماغ والحالة النفسية، وإمكانية توظيفها للتأثير على المشاعر والسلوك، ويستشهد البعض بقصص وتصريحات منسوبة إلى شخصيات مثيرة للجدل مثل جيفري إبستين في سياقات تتعلق بالتأثير والسيطرة. وسواء صحت كل هذه التفاصيل أو لم تصح، فإن المؤكد أننا نعيش زمن حرب نفسية وفكرية، تُستخدم فيه أدوات كثيرة، ويصبح من السذاجة أن يتعامل الإنسان مع كل ما يُطرح دون وعي أو حذر.
وليس غريبًا، في هذا السياق، أن يصف بعض أهل العلم المعازف بأنها من مزامير إبليس، في إشارة رمزية إلى قدرتها على اللهو وصرف القلب، بغض النظر عن الخلاف الفقهي المعروف، لأن المقصود الأعمق هو التحذير من كل ما قد يُبعد القلب عن يقظته.

وبينما كنت غارقًا في هذه الخواطر، واصلت القراءة حتى بلغت ختام السورة، فاستوقفتني الآية الكريمة: "ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن"، فعلمت أن القضية ليست صراعًا لإثبات رأي،

ولا رغبة في الانتصار لوجهة نظر، بل مسؤولية أخلاقية قبل كل شيء، مسؤولية أن يكون الإنسان صادقًا، متثبتًا، خائفًا من أثر كلمته قبل أن يقولها.
في زمن كثرت فيه المنابر، وسهل فيه النشر، وأصبح كل إنسان قادرًا أن يؤثر في المئات والآلاف، لم يعد الخطر في الجهل وحده، بل في الجرأة على الكلام مع الجهل. ولم يعد السؤال: ماذا تريد أن تقول؟ بل: ماذا ستتحمل بسبب ما قلت؟

وأنا أغلقت المصحف تلك الليلة، لم يكن في قلبي إلا دعاء واحد: اللهم سلمنا من أن نضل أو نُضل، اللهم اكفنا أوزار أنفسنا، ولا تحملنا أوزار غيرنا، واجعلنا ممن يدعون إلى سبيلك بالحكمة والموعظة الحسنة.

فحقًا... ألا يكفيك وزرك، لتحمل وزر غيرك؟

هل استعانت أمريكا بالجن؟

منذ أن كان الإنسان يرفع عينيه إلى السماء وهو يتساءل: من يراقب من؟ وحين انشغل طويلًا بفكرة "القرين" والكائنات الخفية التي تعرف خبايا النفس، لم يكن يتخيل أن يأتي يوم يصبح فيه الخوف من عينٍ صغيرة في أعلى الهاتف، كالخوف من القرين نفسه ولكن بصورة متشابهة. السؤال الذي كان يُصنف يومًا في خانة الغيبيات — هل يمكن قراءة الأفكار؟ — عاد اليوم بثوبٍ علمي وتقني، حتى بات بعضنا يشعر أننا أصبحنا مكشوفين بالكامل، وأن الكاميرات التي ترصد العين وحركات الوجه قادرة على التقاط ما يدور في داخلنا.

هذه الفكرة ليست وليدة اللحظة. لقد طرحتُها سابقًا عام 2015 في كتابي "هلوساتي ورسائل مشفرة"، وتناولها كثير من منظري المؤامرة، من بينهم محمود صلاح ومايا صبحي، مؤكدين أننا دخلنا عصر انكشاف الإنسان الكامل، وأن الهواتف باتت تقرأ أفكارنا عبر الكاميرا وتحليل حركة العين وتعابير الوجه، بل ونُقل في موقع الجزيرة حديثٌ عن تقنيات ترصد الإشارات الدقيقة في الوجه والسلوك. وبين التحليل العلمي للمشاعر عبر الذكاء

الاصطناعي، وبين القفز إلى استنتاج "قراءة الأفكار"، وُلدت منطقة رمادية خصبة للريبة.طرحت فيه تساؤل عن إمكانية الربط بين قراءة الأفكار في الماضي عن طريق الجن والعفاريت، وبين تسخير التكنولوجيا حديثا لهذه المهمة بالضبط ،والتساؤل تمرد حتى أصبح يطرح فكرة إمكانية التعاون بين الاثنين على مستوى علمي باراسيكولوجي رفيع .

علميًا، ما تفعله الخوارزميات اليوم مذهل فعلًا: تحليل تعابير الوجه، تتبع حركة الحدقة، قياس أنماط التصفح، التنبؤ بالسلوك الشرائي والسياسي بدقة عالية. لكنه يظل — وفق ما هو معلن ومثبت — تنبؤًا إحصائيًا قائمًا على البيانات، وقد تجاوزه ليصبح اقتحامًا مباشرًا للعقل. قراءة النشاط العصبي تتطلب أجهزة معملية معقدة توضع على الرأس لالتقاط إشارات الدماغ، ولا نستبعد أن يتطور الموضوع ليصل إلى مجرد كاميرا هاتف. ومع ذلك، حين تقترح عليك منصة ما فكرةً كنت تظن أنك لم تبح بها لأحد، يتسلل إليك الشعور القديم: هل وصلوا إلى رأسي؟

في خضم هذا القلق التكنولوجي، جاءت تصريحات الرئيس الأمريكي دونالد ترامب المثيرة للجدل حول الأجسام الطائرة المجهولة والفضائيين، وتلميحاته إلى أن البنتاغون يمتلك وثائق قد تُكشف يومًا ما. وسبقه في

الحديث عن ظواهر جوية غير مفسرة الرئيس الأسبق باراك أوباما، وقد صرح نصا بأن الحكومة تمتلك وثائق سرية بوجود "كائنات فضائية" كما روّج البعض. هنا اشتعل الخيال الجمعي: هل هناك شيء أكبر يُخفى؟ وهل لتلك التصريحات علاقة بموضوع قراءة الأفكار الرائج؟

السؤال الذي يدهشني: هل كان تصريح ترامب عن الكائنات الفضائية له علاقة بالموضوع الرائج عن قراءة الأفكار؟ وهل أصبحت أمريكا وحلفاؤها تستعين بهذه الكائنات الفضائية التي نعرف نحن كمسلمين ماذا يُقصد بها، مع إدراكنا لمفهوم القرين في تراثنا؟ هل وصلت أمريكا إلى حدّ التعاون بين الجن أو الكائنات الفضائية وبين التقنية والتكنولوجيا؟ هل سخّرت الفضائيين أو "العفاريت" لقراءة الأفكار؟ وهل تملك فعلًا مخبأً سريًا أو قاعدة عسكرية لهذه الكائنات تُستخدم لجمع المعلومات العسكرية والسياسية؟

تغذي هذه الأسئلة رواياتٌ أخرى، منها ما صرّح به بعض القادة الإيرانيين عن أن أمريكا تستخدم "السحر" أو تستعين بالقرين في جمع المعلومات الحساسة وتنفيذ الاغتيالات والهجمات الاقتصادية والعسكرية. ويُستشهد أحيانًا بمشروع ستار جيت الذي أطلقته الاستخبارات الأمريكية لدراسة ما سُمّي بالباراسيكولوجي أو "الرؤية

عن بعد"، بوصفه دليلًا على أن القوى الكبرى لا تتردد في استكشاف الماورائيات إن رأت فيها منفعة استراتيجية .

ثم ظهرت قضية جيفري إبستين وجزيرته وطقوسه وعلاقاته الواسعة، لتضيف طبقة جديدة من الغموض في نظر البعض: شبكات نفوذ، ابتزاز، جمع معلومات. غير أن الربط بين تلك الجرائم وبين تعاون مع كائنات غير بشرية أو استخدام طقوس خارقة لجمع المعلومات يبقى في دائرة السرديات المطروحة التي تثير الريبة والشك .

بين الجن في المخيال الإسلامي، والفضائيين في المخيال الغربي، تتكرر الحاجة البشرية لتفسير المجهول بقوة خفية. ربما لم يتحول هوس قراءة الأفكار من الغيب إلى العلم بمعناه الحرفي، لكنه تحوّل من الكهانة إلى الخوارزمية، ومن استدعاء القرين إلى استدعاء البيانات. نحن مكشوفون فعلًا، لكن انكشافنا — وفق المعطيات المتاحة — رقمي سلوكي، وقد يكون هذا الإنكشاف قد سخر معطيات غيبية ميتافيزيقية كما صرح ترامب وسماهم الفضائيين أو كما عرفت في ملفات إبستين بالشياطين والعفاريت. والسؤال الحقيقي قد لا يكون: هل يقرأون أفكارنا عبر الجن أو الكائنات الفضائية؟ بل: هل وثقنا بالتكنولجيا كمصدر أمان. في حين أنها بدأت كأداة

مسخرة بين أيادي قوى تتنافس في السيطرة على عالم الروح والسماء وليس عالم البشر فقط .

هنا يكمن الرعب الحقيقي... وهنا ينتهي الغموض ليبدأ وعيٌ أصعب من كل الأساطير.

حينما تسيس جائزة نوبل ..تستبدل

منذ أكثر من قرن، ما تزال جائزة نوبل تتربع على عرش الجوائز العلمية والأدبية في العالم، بوصفها أعلى وسام يمكن أن يناله عالم أو مفكر أو أديب. فقد أراد مؤسسها العالم السويدي ألفريد نوبل أن يترك للبشرية إرثًا يكرم العقول التي تسهم في تقدم الإنسان، فكانت الجائزة منذ انطلاقها عام 1901 علامة فارقة في تاريخ العلم والفكر، ومرآة تعكس الإنجازات الكبرى في الفيزياء والكيمياء والطب والأدب والسلام. ومع مرور العقود، تحولت الجائزة إلى حلم يراود طلاب الجامعات والباحثين والكتاب، لأنها لا تمنح الشهرة فحسب، بل تمنح صاحبها مكانة خالدة في سجل الحضارة الإنسانية.

غير أن هذه الهالة التي تحيط بالجائزة لم تمنع ظهور تساؤلات كثيرة حول طبيعة معاييرها، وحول مدى تأثرها أحيانًا بالسياقات السياسية والثقافية العالمية. فبينما يرى كثيرون أنها ما تزال معيارًا موضوعيًا لتكريم الإبداع، يرى آخرون أن الجوائز العالمية الكبرى لا تنفصل تمامًا عن موازين القوة والنفوذ الثقافي في العالم، وأنها قد تتحول في بعض الأحيان إلى أدوات تأثير ناعمة في

تشكيل الوعي العالمي وتوجيه الاهتمام العلمي والثقافي. وفي هذا السياق يتداول بعض الباحثين إحصاءات تشير إلى أن نسبة كبيرة من الحاصلين عليها تنتمي إلى خلفيات ثقافية أو دينية محددة، حيث ذكر حساب إسرائيل بالعربية نصا أن منذ ان شرع بمنح جوائز نوبل عام 1901 وحتى العام 2021 جرى توزيع 900 جائزة، وقد فاز اليهود بـ210 منها وبضمنهم 12 إسرائيليا .
وهذه إحصائيات تثير تساؤل معهم ،عن مدى خضوع الجائزة للسياسة العالمية وتطرح تساؤل مهم وهو هل تم تسيس الجائزة حتى تصبح قوة ناعمة للتأثير في مجال العلم والعلماء؟ !

ولعل واحدة من أكثر اللحظات إثارة للنقاش في العالم العربي كانت عندما حصل الأديب المصري نجيب محفوظ على جائزة نوبل في الأدب عام 1988، ليصبح أول أديب عربي ينال هذا التكريم العالمي. فقد اعتبرت الأكاديمية السويدية آنذاك أن أعماله قدمت تصويرًا عميقًا للحياة الاجتماعية في مصر، وأن رواياته نجحت في كشف تحولات المجتمع المصري عبر أجيال متعددة. لكن هذا التكريم لم يمر دون جدل، فقد تعرضت بعض أعماله لنقد شديد من بعض علماء الأزهر الشريف الذين رأوا أن بعض أطروحاته الأدبية تحمل رموزًا أو أفكارًا تتعارض مع الثوابت الدينية. حيث ظهرت أصوات نقاد من الكتاب

والأدباء توضح أن نجيب محفوظ عرى المجتمع المصري ،وكشف نقاط ضعفه مما ساعد الجهات المستفيدة من استهداف أمنه القومي .

وقد عاد هذا الموضوع إلى ذهني في ليلة هادئة من ليالي العشر الأواخر من رمضان، حين يجد الإنسان نفسه أقرب إلى التأمل ومراجعة مسارات الحياة. تذكرت حينها سؤالًا قديمًا طرحه عليّ أحدهم أيام الجامعة: ما هو حلمك؟ وأذكر أنني أجبته بلا تردد: أحلم أن أحصل يومًا ما على جائزة نوبل. كان ذلك الحلم يبدو طبيعيًا لطالب يطمح إلى أن يترك أثرًا في العالم، لكن مع مرور الزمن، ومع اتساع الاطلاع على النقاشات الدائرة حول الجوائز العالمية وكيف تُمنح، بدأت تتسلل إلى الذهن تساؤلات أخرى: هل يمكن أن تتحول الجوائز الكبرى أحيانًا إلى أدوات نفوذ ثقافي يتم تسيسها باسم العلم والعلماء؟ وهل يمكن أن تسهم في تشكيل اتجاهات العلم والفكر عالميًا عبر تكريم أسماء بعينها وتسليط الضوء عليها؟

سنواجه الكثيرين من المدافعين عن توجه هذه الجائزة. ولكن مجرد سؤال واحد بسيط يمكنه أن يقلب الطاولة رأسا على عقب، وهو ما يتعلق بإيران، فلماذا منحت جائزة نوبل للسلام للناشطة نرجس محمدي من خلف القضبان وهي التي كانت ناشطة ضد الأمن القومي

الإيراني، لماذا لا يتم تكريم علماء النووي الإيراني ،فإيران الدولة العظيمة التي حوصرت لأكثر من عقدين من الزمن، أخرجت الكثير من علماء النووي والكيماوي ومهندسي الصواريخ وعلماء أذاقوا العدو ويلات. لماذا يتم منح الجائزة لما هو ضد أمنها، ولا يتم تسليط الضوء على علماء المفاعلات والنووي والكيماوي؟ولماذا بدل عن منحهم جائزة نوبل. يتم تصفيتهم وإغتيالهم من قبل أطراف هي المسؤولة؟أليس عمل دولة محاصرة ومفروض عليها عقوبات دولية وعالمية ،وتخريجها لهؤلاء العلماء ،أليس ذلك جدير بالإحترام والتقدير ورفع القبعة إجلالا لهم؟أم أنه فعلا الجائزة تخضع لإعتبارات سياسية ونفوذ عالمية وثقافية ولابد من إستبدالها .

ومن هذه التساؤلات ولدت فكرة بدت في البداية بسيطة، لكنها تحمل في طياتها معنى كبيرًا: لماذا لا تكون هناك جائزة عربية عالمية تضاهي جائزة نوبل في مكانتها وتأثيرها؟ جائزة تحمل اسم أحد أعلام الحضارة الإسلامية الذين أسهموا في تقدم البشرية، مثل عالم البصريات العظيم ابن الهيثم أو رائد علم الجبر محمد بن موسى الخوارزمي. جائزة لا تُمنح بدافع الشهرة أو النفوذ، بل تُمنح على أساس الإنجاز العلمي الحقيقي الذي يخدم الإنسانية جمعاء. جائزة تُدار عبر لجان علمية تضم نخبة

من العلماء العرب والأجانب، وتكون معيارًا عالميًا جديدًا للتميز العلمي والفكري.

وليس هذا الحلم بعيدًا عن الواقع تمامًا، فقد شهدت السنوات الأخيرة مبادرات علمية مهمة في المنطقة، خصوصًا في دبي التي سعت إلى جمع عدد من العلماء الحاصلين على جائزة نوبل في مؤتمرات علمية تهدف إلى تحفيز البحث العلمي وتشجيع الابتكار. لكن الخطوة التالية ربما تكون أعمق من مجرد اللقاءات والمؤتمرات؛ ربما تكون في تأسيس جائزة عالمية عربية قادرة على استقطاب العلماء من مختلف أنحاء العالم، وعلى إعادة الاعتبار لدور المنطقة في دعم المعرفة.

فالحقيقة أن رعاية العلم والعلماء ليست فكرة جديدة في تاريخنا. ففي العصر العباسي مثلًا، أدرك الخليفة المأمون العباسي أن ازدهار الدولة لا يتحقق بالقوة العسكرية وحدها، بل بالعلم والمعرفة. فأنشأ "بيت الحكمة" في بغداد، وجمع فيه العلماء والمترجمين من مختلف الثقافات، وكان يكافئهم بسخاء على إنجازاتهم العلمية وترجماتهم للكتب اليونانية والفارسية والهندية. وقد أسهمت تلك الحركة العلمية في إطلاق واحدة من أعظم النهضات الفكرية في تاريخ الإنسانية، حتى أصبحت بغداد في ذلك العصر مركزًا عالميًا للعلم والمعرفة.

ولعل الدرس الذي يمكن أن نتعلمه من التاريخ بسيط وواضح: الحضارات التي تحتضن العلم وتكرم العلماء هي التي تصنع المستقبل. أما الحضارات التي تكتفي بدور المتلقي، فإنها تبقى دائمًا على هامش التاريخ. ولذلك فإن التفكير في جائزة عربية عالمية ليس مجرد حلم ثقافي، بل هو مشروع حضاري يعيد الاعتبار لدور الأمة في صناعة المعرفة الإنسانية.

فالعلم في جوهره رسالة مشتركة بين البشر، لكنه يحتاج دائمًا إلى مؤسسات عادلة تحتضنه وتدفعه إلى الأمام. وربما يأتي يوم نرى فيه جائزة عربية تحمل اسم أحد علمائنا الكبار، تقف جنبًا إلى جنب مع جائزة نوبل بل تنافسها كالند، وتمنح العلماء من كل أنحاء العالم تقديرًا يليق بإنجازاتهم، لتثبت أن أمة أنجبت ابن الهيثم ومحمد بن موسى الخوارزمي قادرة على أن تعود مرة أخرى إلى موقعها الطبيعي في قيادة مسيرة العلم والحضارة.

حينما لا ترد الجهات الحكومية

شهد العالم اليوم تسارعا غير مسبوق في وتيرة التحول الرقمي، حيث أصبحت الحكومات تعتمد على أدوات التواصل الرقمي كركيزة أساسية لتقديم خدماتها وتعزيز تفاعلها مع المواطنين ولم يعد التواصل الحكومي محصورًا في القنوات التقليدية، بل أصبح يعتمد على منصات إلكترونية ذكية، وبوابات موحدة، وخدمات فورية تسهم في رفع كفاءة الأداء وتحسين تجربة المستفيد. وتُظهر تجارب العديد من الدول أن الاستثمار في التواصل الرقمي لا يقتصر على تسهيل
الإجراءات فحسب، بل يمتد ليعزز الشفافية، ويقوي الثقة بين المواطن والمؤسسة، ويدعم مسيرة التنمية الشاملة.
وعلى الرغم من هذا التقدم العالمي، تبرز بعض التحديات التي تستدعي الوقوف عندها محليًا، ومن بينها ما تم تداوله مؤخرا حول وجود إعاقات وصعوبات في البوابة التعليمية، والتي وضعت عددًا من الطلبة في مواقف حرجة، خاصة مع تأجيل أو تعثر منظومة الدراسة وتحويلها إلى دراسة عن بعد. فقد اشتكى العديد من الطلبة من صعوبة الولوج إلى المنصة، وعدم جاهزيتها للتعامل مع الأعداد الكبيرة، إضافة إلى ضعف الاستجابة الفنية في

معالجة هذه المشكلات. هذه التحديات لا تعكس مجرد خلل تقني عابر، بل تطرح تساؤلات أعمق حول مدى جاهزية البنية الرقمية في القطاعات الحيوية، وعلى رأسها التعليم.
إن هذه الوقائع تقودنا إلى تساؤل مشروع: هل سلطنة عمان وحكومتها مستعدة فعلاً لمواكبة التطور الرقمي؟ لا شك أن هناك نماذج مشرّفة تستحق الإشادة، مثل التطور الملحوظ في بعض الجهات الحكومية كشرطة عمان السلطانية. التي حازت على ثناء واسع من المواطنين نظير كفاءة خدماتها وسرعة إنجاز معاملاتها عبر المنصات الرقمية. كما لا يمكن إغفال الجهود المبذولة في تطوير قنوات التواصل مع المواطنين، ومن أبرزها منصة «تواصل» الحكومية للشكاوى والمقترحات، والتي أسهمت بشكل واضح في تنظيم عملية استقبال الملاحظات وتعزيز الاستجابة المؤسسية لها، الأمر الذي انعكس في تقليل حجم الشكاوى المطروحة عبر مواقع التواصل الاجتماعي، وتحويلها إلى قنوات رسمية أكثر فاعلية واحترافية. غير أن هذا التميز يفتح الباب لتساؤل آخر: هل جميع الجهات الحكومية تسير بنفس الوتيرة نحو التحول
الرقمي؟
ومن واقع تجربة شخصية، يمكن تسليط الضوء على فجوة واضحة في جانب التواصل الرقمي. فقد قمت بمراسلة أربع جهات حكومية عبر البريد الإلكتروني الرسمي، إلا

أن التجربة لم تكن بالمستوى المأمول على سبيل المثال، أرسلت إلى المتحف الوطني العُماني قبل أكثر من ثمانية أشهر طلبًا علميًا يتعلق بصورة أرشيفية لنقش موجود على كرسي السلطان سعيد بن تيمور، وذلك في إطار بحث علمي أقوم به إلا أنني لم أتلق أي رد حتى الآن. ومثل هذا التجاهل قد يثبط من عزيمة الباحثين خاصة أولئك الذين يواجهون صعوبة في الوصول الميداني إلى المؤسسات.

كما قمت قبل نحو شهرين بمراسلة أحد المستشفيات الحكومية لطرح قضية صحية تتعلق بضرورة مراجعة الحد الأدنى المقبول لنسبة فيتامين (د)، في ظل تزايد الأمراض المرتبطة بنقصه، غير أنني لم أتلق حتى تأكيدًا باستلام الرسالة. وهذا يثير تساؤلات جوهرية: هل يتم فعلاً متابعة الرسائل الواردة عبر القنوات الرقمية؟ وهل هناك آليات واضحة لضمان التفاعل مع استفسارات المواطنين؟

إن هذه التجارب، رغم فرديتها، تعكس مؤشرات تستدعي التوقف والتأمل. فالتواصل الرقمي ليس ترفًا إداريا، بل هو عنصر أساسي في بناء حكومة عصرية قادرة على التفاعل مع احتياجات المجتمع. ومن هذا المنبر، تبرز دعوة صادقة للحكومة العُمانية إلى إيلاء هذا الجانب أهمية قصوى، والعمل على تطوير منظومة تواصل رقمي فعّالة، تضمن سرعة الاستجابة، وتعزز ثقة المواطن،

وتدعم مسيرة النهضة المتجددة. ولن يتحقق ذلك إلا بتكامل الجهود بين مختلف الجهات، وإدراك أن التحول الرقمي لا يكتمل إلا بتواصل إنساني فعّال عبر أدواته الحديثة.

جرأة التجريب ..ما ينقص جامعاتنا

في لحظة حنين إلى الدراسة والعودة لمقاعدها ،بعد إنقطاع 16 سنة إلا قليل... جلست في ليلة هادئة مع نفسي، أتذكر دراستي ومسيرتي المهنية ،وفي لحظة ضجر، تذكرت أني أنهيت رواية الشيخ اللمونجي لجمال سويد ،وبعد أن عصفت بي الرواية وأدركت أني لا أملك إجابات ،قررت مواصلة البحث عن كتاب جديد، فشرعت أتصفح مكتبة القمر ،ووجدت بعض الكتيبات التي تتعلق بمراجعات لهارفرد، وشد انتباهي مراجعة تحت عنوان :"بناء ثقافة التجريب".. فجعلت أتأمل واستحضر شريط الجامعة ودراستي فيه... وتذكرت مشروعي مع الطلاب في مادة المنجمنت التي يلقيها الدكتور المرحوم منصور الحارثي... حيث كلفنا بعمل مشروع نقترح فيه أفكار لتطوير الجامعة... فجاء طالب من المجموعة بفكرة عبقرية، وهي فكرة الفري لاب،أي المختبر الحر، حيث تقتضي هذه الفكرة، عمل مقرر في كل فصل يتضمن ساعة واحدة فقط، يسمح للطلاب بحضور المختبر وتجريب أي تجربة دون التقيد بمنهج ،ثم عرض نتائج التجارب ومناقشة الأفكار مع الدكاترة والمشرفين... ففي النهاية ساعة واحدة ،ليس بالأمر الجلل، مع تقليل من

المشاريع الفصلية على حساب هذه الساعة، لتكون ساعة متعة وترفيه وفضول وشغف.. فيها يمارس كل طالب ما يحب من تجارب تشغل باله... ويتم ضبط المقرر حسب الإمكانيات والمواد العلمية المتاحة... علي أن تكون هناك مجلة دورية للجامعة تتبنى نشر الجديد المثير الذي يكتشفه الطلاب من هذه التجارب... ويتم تكريم المتفوقين أصحاب الأفكار العبقرية فصليا...
هذه الفكرة لو طبقت، ستسهم بشكل ثوري في زرع ثقافة التجريب في الطلاب ،وتتيح لهم فرصة المتعة وإثارة الفضول ،ولا تدري أي نتائج مذهلة ممكن أن يحققها هؤلاء...
علما أن هذه الفكرة هي مجرد فكرة مبدئية فقط وبإمكان الإدارة تطويرها وتطويعها حسب الإمكانيات المتاحة... وذلك لكسر حالة الركود المعرفي في الطلاب ،ونسف صنم التلقي فقط... حتي يصبح الطالب هو القائد والمتفاعل وصاحب الفكرة

ينطلق هذا المقترح من قناعة راسخة بأن الجامعة لا ينبغي أن تظل فضاءً لتكديس المعرفة فحسب، بل يجب أن تتحول إلى بيئة حية تُنتج فيها الأفكار وتُختبر، وتُصاغ فيها شخصية الطالب بوصفه باحثاً لا متلقياً. فالتعليم الذي يقتصر على التلقين، مهما بلغ من جودة المحتوى، يظل قاصراً عن بناء عقل قادر على الابتكار، لأن الابتكار لا

يولد من الحفظ، بل من التجريب، ومن الجرأة على طرح الأسئلة، ومن الاحتكاك المباشر مع الفكرة قبل الحكم عليها.

إن فكرة "المختبر الحر" التي ظهرت في ذلك المشروع الطلابي البسيط تحمل في جوهرها تحولاً عميقاً في فلسفة التعلم، فهي لا تضيف عبئاً زمنياً ثقيلاً، ولا تتطلب موارد خارقة، بقدر ما تعيد توزيع الاهتمام نحو ما هو أكثر تأثيراً. ساعة واحدة في الأسبوع قد تبدو زمناً هامشياً في جدول مزدحم، لكنها في حقيقتها مساحة مفتوحة للدهشة، حيث يخرج الطالب من قيد المنهج إلى أفق الفضول، ومن رهبة التقييم إلى متعة الاكتشاف. في هذه المساحة، لا يُطلب من الطالب أن يجيب، بل أن يسأل، ولا أن يكرر، بل أن يجرّب، ولا أن يصيب دائماً، بل أن يتعلم حتى من الخطأ.

ومع مرور الوقت، تتحول هذه التجارب الصغيرة إلى تراكم معرفي حي، ليس فقط على مستوى الفرد، بل على مستوى المؤسسة بأكملها. فحين تُوثق هذه المحاولات في مجلة دورية، وحين يُحتفى بالأفكار المتميزة، تتشكل بيئة تحفّز التنافس الإبداعي، وتمنح الطالب شعوراً بأن جهده مرئي ومقدّر. كما أن دور الأستاذ يتغير في هذا السياق من ناقل للمعرفة إلى موجّه وشريك في الاكتشاف، وهو

تحول يعيد التوازن للعلاقة التعليمية ويجعلها أكثر إنسانية وثراءً.
إن الجامعات التي تتبنى مثل هذه المبادرات لا تكتفي بتخريج طلاب ناجحين في الاختبارات، بل تسهم في صناعة عقول قادرة على التفكير المستقل، وعلى التعامل مع تعقيدات الواقع بروح مرنة ومبدعة. وفي زمن تتسارع فيه التغيرات، لم يعد كافياً أن نُعلّم الطلاب ما نعرفه، بل الأهم أن نمنحهم القدرة على اكتشاف ما لا نعرفه بعد.
من هنا، تبدو هذه الفكرة، رغم بساطتها، كمدخل حقيقي لكسر حالة الجمود المعرفي التي قد تصيب بعض البيئات التعليمية، وكخطوة نحو إعادة تعريف دور الطالب ليكون فاعلاً في تجربته التعليمية، لا مجرد متلقٍ لها. وربما يكون أعظم ما في هذا المقترح أنه لا يدّعي الكمال، بل يفتح الباب للتطوير والتكيّف، وفق ما تتيحه الإمكانيات، وما تفرضه الحاجة، ليبقى الهدف الأسمى هو بناء إنسان يتعلم بشغف، ويجرب بجرأة، ويفكر بحرية.إن "المختبر الحر" هو الخطوة الأولى لنسف أصنام الركود، وتحويل جامعاتنا من مراكز لمنح الشهادات إلى مصانع لإنتاج المعرفة والابتكار.

"العلم لا يتطور بالمنطق وحده، بل بالخيال والجرأة على التجربة".

أيوة.. فينا السودا

في عطلة هذا الأسبوع، توجهنا إلى مسقط لِمّةٍ عائلية جميلة مع الأسرة التي قطنت هناك منذ سنوات. اجتمعنا بأختي وأخواتي، وتبادلنا الأحاديث والضحكات، واستمتعنا بأوقاتٍ دافئة لا تُشترى بثمن. وفي إحدى لحظات عودتنا المتأخرة من السوق الصيني، التفت أبي إلى أمي ضاحكًا وقال لها: "ما رأيك لو أخذنا خط دبي الآن؟ سنصل منتصف الليل!" فضحكت أمي بلهجتها العمانية القُحّة وقالت: "أيوه، فينا السودا"!

حين سمعتها تنطق بهذه العبارة، انفجرت ضاحكًا وقلت لها متعجبًا: "ماه تعرفي شو يعني السودا؟!" فضحكت أمي مجددًا وقالت: "هذه عبارة عمانية قديمة، نقولها عندما نريد أن نؤكد أننا لسنا مجانين، بل عقلاء ونفكر بعقل".

وبينما كنا نسير في الطريق من بركاء إلى فلج الشام، ظلّت العبارة تدور في ذهني، حتى تذكّرت نظرية الأخلاط الأربعة التي شكّلت أساس الطب اليوناني القديم، ومنها انطلقت كثير من مفاهيم الطب الحديث. وقد قامت هذه النظرية على أن جسم الإنسان يتكوّن من أربعة أخلاط رئيسية: الدم، والبلغم، والصفراء، والسوداء. وكان الأطباء قديمًا يرون أن صحة الإنسان النفسية والجسدية

تعتمد على توازن هذه الأخلاط، وأن اختلال أحدها يؤدي إلى اضطرابات في الطبع أو المرض.
فغلبة الدم مثلًا كانت تُنسب إلى النشاط والانطلاق، وغلبة الصفراء إلى الحدة والعصبية، بينما ارتبط البلغم بالخمول والهدوء الزائد. أما "السوداء" أو ما عُرف بالمِرّة السوداء، فقد ارتبطت بالكآبة والتشاؤم والانطواء والخوف، حتى إن من يغلب عليه هذا الخليط كان يوصف بالسوداوي، أي كثير الحزن والكسل والجبن والتفكير القاتم.
وهنا أدركت المعنى العميق لعبارة أمي الشعبية "فينا السوداء". فهذه الجملة التي تبدو للوهلة الأولى مجرد تعبير دارج، تحمل في باطنها أثرًا ثقافيًا وطبيًا وفلسفيًا ضاربًا في القدم، انتقل عبر الأجيال حتى استقر في لهجتنا العمانية دون أن نشعر. وكأن الإنسان العماني القديم لم يكن معزولًا عن المعارف الإنسانية، بل كان متأثرًا ومتفاعلًا مع علوم عصره، حافظًا لها في أمثاله ولهجته وتعبيراته اليومية.
حينها أيقنت أن لهجتنا العمانية ليست لهجة أمية أو كلمات عابرة، بل هي وعاء ثقافي عظيم، يحمل بين حروفه تاريخًا طويلًا من الحكمة والمعرفة والتجارب الإنسانية. فكم من مثلٍ عماني أو عبارة شعبية نظنها بسيطة، بينما تخفي وراءها فلسفة عميقة أو جذورًا علمية قديمة.

ومن هذه المنصة، أدعو الشباب العماني إلى البحث في التاريخ العماني، وفي لهجاته وأمثاله وتعبيراته الشعبية، لأننا سنكتشف من خلالها مدى عمق الإنسان العماني، وسعة ثقافته، وبعد نظره، واتصاله الحضاري بالعالم عبر القرون. فالأمم لا تحفظ تاريخها في الكتب فقط، بل تحفظه أيضًا في لغتها ولهجتها وأمثالها التي تعيش على ألسنة الناس جيلاً بعد جيل.

وفي الختام، أؤكد أن هذا الربط بين العبارة الشعبية العمانية "فينا السوداء" وبين نظرية الأخلاط الأربعة، ما هو إلا تحليل شخصي واستنباط فردي مبني على ما قرأته واطّلعت عليه من كتب ومقالات تاريخية وطبية، وقد يحتمل الصواب كما يحتمل الخطأ. فاللهجات الشعبية بحر واسع، تتداخل فيه الأصول اللغوية والثقافية والاجتماعية، وربما تحمل بعض العبارات معاني أخرى أو جذورًا مختلفة لم نصل إليها بعد. لكن يبقى التأمل في تراثنا ولهجاتنا بابًا جميلًا لاكتشاف عمق الثقافة العمانية وثرائها، ومحاولة لفهم ما تختزنه الكلمات البسيطة من تاريخٍ ومعرفةٍ وحكمةٍ تناقلتها الأجيال عبر الزمن.

ثورة الطب النفسي تبدأ من العين

الذي دفعني لكتابة هذا المقال، هو أنني دائما أؤمن أن للعيون بوابة تُفتح بها أبواب الروح، وأن الله أعطى بعض الناس فراسة يستطيعون بها معرفة دواخل النفس وبواطنها من حركات العين ونظراتها وسكونها واضطرابها(كما كانت لصدام حسين وهتلر).فالإنسان مهما حاول أن يخفي ما بداخله، تبقى العين في كثير من الأحيان أكثر الأعضاء صدقا في التعبير عن الألم والخوف والقلق والانكسار. ولقد دفعني أكثر لكتابة هذا المقال أنني قبل شهر تقريبا، وفي قضية بسنت سليمان التي انتحرت بإلقاء نفسها من الطابق الثالث عشر في مصر، لفت انتباهي شكل عينيها في بعض الصور والمقاطع المتداولة، إذ شعرت أن العين لم تكن طبيعية، وكأن المقلة مرتفعة إلى الأعلى على هيئة نصف قمر. والأغرب أنني رأيت هذا النمط نفسه من قبل عند أشخاص أعلم يقينا أنهم كانوا يعانون
اضطرابات نفسية حادة. ومن هنا بدأ السؤال يلح عليّ: هل يمكن أن تكون العين بالفعل نافذة تكشف المرض النفسي؟ وهل يمكن أن يأتي يوم يصبح فيه تشخيص

الأمراض النفسية قائما على مؤشرات بيولوجية دقيقة، لا على الكلام والانطباعات فقط؟

كلنا نعرف أن الطب النفسي الحديث، رغم تطوره الكبير، لا يزال يعتمد في جانب واسع منه على وصف المريض لمشاعره وأفكاره، وعلى ملاحظة الطبيب للسلوك والانفعالات. وهذه الطريقة، مهما بلغت دقتها، تبقى معرضة للخطأ أو التمثيل أو سوء الفهم. ولعل من أشهر ما كشف هذه الإشكالية، التجربة الشهيرة التي أجراها الطبيب النفسي الأمريكي David Rosenhan في سبعينيات القرن الماضي، والمعروفة باسم "تجربة روزنهان"، حين قام عدد من الأشخاص الأصحاء بادعاء سماع أصوات وهمية، فتم إدخالهم إلى مستشفيات نفسية وتشخيصهم باضطرابات عقلية، رغم أنهم عادوا بعد ذلك مباشرة إلى التصرف بشكل طبيعي تماما. وقد خلصت التجربة إلى نتيجة صادمة، وهي أن التشخيص النفسي يمكن أن يتأثر كثيرا بالتصورات والانطباعات الذاتية، وأنه يفتقر أحيانا إلى الأدلة البيولوجية القاطعة التي نجدها في بقية فروع الطب.

وفي لحظة فضول، دخلت أبحث عن العلاقة بين العين والمرض النفسي، ففوجئت بأن هذا المجال ليس جديدا كما كنت أظن، بل توجد حوله دراسات وأبحاث كثيرة منذ

سنوات طويلة. فالعين ليست مجرد أداة للإبصار، بل هي امتداد مباشر للدماغ والجهاز العصبي، ولذلك فإن كثيرا من الاضطرابات النفسية والعصبية تنعكس بصورة أو بأخرى على حركة العين وسرعة الرمش واتساع البؤبؤ واتجاهات النظر وطريقة التحديق والاستجابة للمحفزات البصرية. وقد وجدت أن بعض الدراسات تتحدث عن وجود اضطرابات واضحة في تتبع العين لدى مرضى الفصام، وأن مرضى القلق يملكون أنماطا مختلفة في الانتباه البصري والتركيز، بينما يظهر الاكتئاب أحيانا في بطء الحركة البصرية وضعف التفاعل مع المؤثرات الخارجية. بل إن بعض الأبحاث الحديثة بدأت تستخدم تقنيات تتبع العين لمحاولة اكتشاف مؤشرات مبكرة لاضطرابات مثل الفصام والقلق والاكتئاب والتوحد وحتى بعض الأمراض العصبية كألزهايمر وباركنسون وهنا تظهر الفكرة التي أراها قد تشكل ثورة مستقبلية في الطب النفسي، وهي دخول الذكاء الاصطناعي إلى هذا المجال. فإذا كان الإنسان بفراسته وحدسه يستطيع أحيانا أن يلتقط إشارات معينة من العين تدل على اضطراب داخلي، فكيف سيكون الحال عندما يتولى الذكاء الاصطناعي تحليل ملايين الأنماط الدقيقة التي لا تستطيع العين البشرية ملاحظتها؟ نحن اليوم نعيش عصرا أصبحت فيه الخوارزميات قادرة على رصد أدق الحركات والتغيرات، ومع تطور تقنيات تتبع العين قد يصبح من الممكن ابتكار

نظارات ذكية تقوم بتحليل حركة العين لحظة بلحظة، وتقيس معدل الرمش واتساع البؤبؤ واتجاه النظر وزمن التحديق والاستجابة للمؤثرات، ثم تقارن هذه البيانات بملايين الأنماط المخزنة مسبقا داخل أنظمة الذكاءالاصطناعي.

وربما سنصل مستقبلا إلى مرحلة يصبح فيها تشخيص بعض الأمراض النفسية أقرب إلى فحص القلب أو تحليل الدم، لا مجرد استنتاجات مبنية على الحوار والسلوك الظاهر فقط. فبدلا من أن يقول الطبيب "أعتقد أن هذا الشخص يعاني من القلق"، قد تظهر بيانات تتبع العين أن هناك نمطا بصريا وعصبيا مطابقا بدرجة كبيرة لأنماط القلق المعروفة علميا. وبدلا من أن يبقى الاكتئاب أو الفصام في دائرة الظنون والانطباعات، قد يصبح هناك دليل فسيولوجي يمكن قياسه وتحليله بدقة.

بالطبع، لا يعني ذلك أن العين وحدها ستكون كافية لتشخيص النفس البشرية بكل تعقيداتها، لكن المؤكد أن هذا التطور قد ينقل الطب النفسي من مرحلةيغلب عليها التقدير الشخصي، إلى مرحلة أكثر دقة وموضوعية تعتمد على مؤشرات عصبية وبيولوجية واضحة. وربما يكون هذا أحد أعظم التحولات الطبية في العقود القادمة، لأن

تشخيص الألم النفسي مبكرا قد ينقذ حياة كثيرين قبل أن يصلوا إلى الانهيار أو الانتحار.

واللافت أن الإنسان منذ القدم كان يربط بين العين والحالة الداخلية للنفس. فالعرب تحدثوا كثيرا عن الفراسة، والناس دائما يرددون أن "العين لا تكذب". وربما ما كان يُنظر إليه قديما باعتباره مجرد حدس أو فراسة، سيجد له العلم الحديث تفسيرا عصبيا دقيقا. ولعل هذا المعنى يقترب من قوله تعالى: "سيماهم في وجوههم"، فالوجه عموما، والعين خصوصا، يحملان بالفعل آثار ما يدور في الداخل من خوف أو ألم أو اضطراب أو طمأنينة.وربما سيأتي يوم تصبح فيه نظارة صغيرة قادرة على اكتشاف الألم النفسي قبل أن يتحول إلى مأساة، وعندها سيدرك العالم أن العين لم تكن مجرد عضو للإبصار، بل لغة كاملة تتحدث بها النفس دون كلمات

حماية العباقرة ضرورة

لم تكن عطلة هذا العيد عطلة خالية من جموح القراءة والكتابة، فمنذ بداية الإجازة وحتى يوم الخميس ـ وقت كتابة هذا المقال ـ كنت قد أنهيت كتابين؛ أحدهما ديني للكاتب جابر علي الفيفي، والآخر رواية لكاتب خليجي لن أذكر اسمها حتى لا أمنحها ترويجًا لا تستحقه.

قضيت أيام العيد متنقلة بين دفء الأحاديث العائلية، وبين عزلة فكرية هادئة مع الكتب، وكأنني أعيش بين عالمين؛ عالم الألفة الاجتماعية، وعالم التأمل الداخلي الذي تمنحه القراءة للإنسان.

وفي مساء الخميس، بينما كنت عائدة من سمر ليلي مع العائلة، وصلني تنبيه من تطبيق "نبض" عن خبر تصدر وسائل التواصل الاجتماعي والصحف العربية، وكان الخبر بمثابة مدخل واسع للتأمل في حرب العقول الدائرة اليوم بين الولايات المتحدة الأمريكية والصين.

الخبر يقول إن الصين شددت القيود على سفر عباقرة الذكاء الاصطناعي، وألزمتهم بالحصول على موافقات

مسبقة من الجهات العليا قبل مغادرة البلاد. وبمجرد قراءتي لهذا الخبر، عاد إلى ذهني ما حدث خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية، حين شددت الولايات المتحدة الحراسة على علمائها ومفكريها خوفًا من تسرب المعرفة العلمية إلى دول المعسكر الآخر. كانوا يدركون آنذاك أن العقول ليست مجرد أفراد، بل ثروات استراتيجية تعادل الجيوش والأسلحة.

ومن هنا بدأ السؤال يلح عليّ: لماذا لا نجد هذا الحرص ذاته في العالم العربي؟ لماذا لا نشاهد تشديدًا حقيقيًا على حماية العقول العربية والخليجية، في وقت تتزايد فيه هجرة الكفاءات إلى الخارج عامًا بعد عام؟

لدينا أطباء، وباحثون، ومفكرون، وأكاديميون، ومبرمجون، وعلماء قادرون على إحداث فارق حقيقي، لكن أغلبهم لا يحظى بالاحتواء الكافي، ولا بالتقدير الذي يشعره بأنه جزء أساسي من مشروع الدولة ومستقبلها. بل إن كثيرًا منهم يجد نفسه مضطرًا للرحيل إلى بيئات أخرى تمنحه الاعتراف، والدعم، والمساحة التي يستحقها.

فهل المشكلة أننا لا نملك عقولًا تضاهي العقول الغربية أو الشرقية؟ بالتأكيد لا. التاريخ العربي والإسلامي زاخر بالأسماء التي صنعت الحضارة الإنسانية في الطب والفلك

والرياضيات والفلسفة. المشكلة ليست في ندرة العبقرية، بل في طريقة التعامل معها.

الدول الكبرى لا تنظر إلى العلماء بوصفهم موظفين عاديين، بل تعتبرهم أصولًا استراتيجية وأمنًا قوميًّا ناعمًا. ولذلك تحرص على توفير البيئة المناسبة لهم، من دعم مالي، وحرية بحثية، ومكانة اجتماعية، وحماية معنوية ومهنية.

أما في عالمنا العربي، فما يزال كثير من العلماء يعيشون في هامش الاهتمام، بينما تُمنح الأضواء أحيانًا لمن لا يضيفون شيئًا حقيقيًا لمستقبل الأوطان. وهنا تكمن المفارقة المؤلمة: نحن نمتلك العقول، لكننا لا نمتلك بعد الثقافة التي تؤمن بأن العقل هو الاستثمار الأهم.

إن حماية العلماء لا تعني تقييدهم بقدر ما تعني احتواءهم، وتقديرهم، وصناعة بيئة تجعلهم يشعرون بأن أوطانهم بحاجة إليهم فعلًا. فحين يشعر العالم بقيمته داخل وطنه، لن يفكر في الهجرة، ولن يبحث عن الاعتراف في مكان آخر.

الدول التي تصنع المستقبل لا تبني فقط الجسور والمباني، بل تبني الإنسان القادر على إنتاج المعرفة. والصين اليوم

لم تصل إلى هذه المكانة لأنها تملك المال وحده، بل لأنها فهمت مبكرًا أن معركة العصر الحقيقيّة هي معركة العقول.

ويبقى السؤال مفتوحًا: متى تدرك الدول العربية أن حماية العباقرة ليست رفاهية ثقافية، بل ضرورة حضارية وأمنية لبناء المستقبل؟

المرشملو والآخرة

انقطعت فترة طويلة عن دروس علم النفس، ولكني لم أنقطع عن قراءة الكتب التي تتحدث عن أسرار النفس البشرية وتعقيداتها. وبينما كنت أقرأ وردي اليومي قبل النوم من المعين الذي لا ينضب، كتاب الله عز وجل، وصلت إلى قوله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾.

وسبحان الله، رغم أنها ربما المرة المائة أو يزيد التي أقرأ فيها هذه الآية منذ صغري، إلا أن ذهني انتقل فورًا إلى نظرية نفسية شهيرة تُعرف باسم "تجربة المرشملو."

وتقوم هذه التجربة على وضع طفل أمام قطعة من حلوى المرشملو، ثم يُخيَّر بين أن يأكلها فورًا، أو أن ينتظر نحو خمس عشرة دقيقة ليحصل على قطعتين بدلًا من واحدة. وقد لاحظ الباحثون أن الأطفال الذين استطاعوا تأجيل رغبتهم الفورية والانتظار من أجل المكافأة الأكبر، أظهروا في المتوسط درجات أعلى من الانضباط الذاتي والقدرة على التخطيط وتحقيق الأهداف على المدى البعيد.

ولعل ما يلفت الانتباه هنا ليس التجربة نفسها، بل الفكرة الكامنة وراءها: هل تختار اللذة العاجلة أم المكافأة الأعظم التي تحتاج إلى صبر وانتظار؟

وهنا وجدت نفسي أقارن بين هذه النظرية النفسية وبين المنهج القرآني في النظر إلى الدنيا والآخرة. فالدنيا، مهما عظمت في أعين الناس، ليست إلا متاعًا مؤقتًا محدود الأجل، بينما الآخرة هي الحياة الحقيقية الباقية. والمؤمن يعيش عمره كله وهو يؤجل كثيرًا من شهواته ورغباته المحرمة، ويصبر على الطاعات والتكاليف، ويقاوم نزوات النفس، لأنه ينتظر الجزاء الأعظم عند الله.

إن الإنسان الذي يلهث خلف الدنيا وحدها يشبه ذلك الطفل الذي لم يستطع الانتظار دقائق معدودة، فاختار المكافأة الصغيرة العاجلة. أما المؤمن الذي يؤثر الآخرة على الدنيا، ويقدم رضا الله على رغباته الآنية، فإنه يشبه الطفل الذي امتلك القدرة على ضبط نفسه لينال المكافأة الأكبر.

بل إن الفارق هنا أعظم بما لا يقاس؛ ففي التجربة كانت الجائزة قطعة إضافية من الحلوى بعد خمس عشرة دقيقة، أما في ميزان الإيمان فإن الجائزة هي رضوان الله وجنته، والنعيم المقيم الذي لا يزول.

ومن هنا نفهم سر تكرار القرآن الكريم لمدح أولي الألباب وأصحاب البصيرة الذين ينظرون إلى العواقب ولا تغرهم اللذات العابرة. فالفلاح والنجاح الحقيقيان ليسا في اقتناص المتعة السريعة، وإنما في القدرة على تأجيل الرغبات، وضبط النفس، والسير بثبات نحو الغاية الكبرى.

ولعل أجمل ما في الأمر أن العلم الحديث، بعد تجاربه وأبحاثه ونظرياته، يعود ليكتشف قيمة الصبر والانضباط وتأجيل الإشباع، وهي المعاني التي غرسها القرآن في النفوس منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا. وكأن رحلة العلم الطويلة تدور دورة كاملة لتعود إلى نقطة البداية: أن كلام رب العالمين هو الهادي إلى ما يصلح النفس الإنسانية في دنياها وأخراها.

سبحان من خلق النفس، وشرع لها ما يهذبها، وأخبرها أن النجاح الحقيقي ليس في الاستجابة لكل رغبة عاجلة، بل في اختيار ما هو أبقى وأعظم. فبين قطعة مرشملو تُؤكل الآن، وأخرى تُنال بعد انتظار، درس نفسي جميل؛ لكن بين الدنيا والآخرة درس إيماني أعظم، يختصره قول الله تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾

هل عباقرتنا جبناء؟

عاهدت نفسي أني أعامل الناس كما أستحق أن يعاملوني. وكوني كاتبة ومفكرة وباحثة، فأنا أطلب ما يطلبه كل الكتاب في العالم؛ أن تخترق كلماتي وأفكاري العالم، وأن تصل إلى أكبر عدد ممكن من الناس، وأن تجد طريقها إلى الذاكرة الإنسانية، لذلك عاهدت نفسي أيضاً أنه إذا وجدت كاتباً عظيماً، ذا سيرة مدهشة وأفكار استثنائية، أن أنشره للعالم كما أطمح أن ينشر الناس أفكاري العظيمة ويخلدوها.

وما إن وقعت عيني على اقتراح أحد المتابعين لصاحب تغريدة يطلب فيها كتاباً يغير حياته ليقرأه، حتى اقترح أحد القراء رواية «دميان» لهيرمان هسه. والحقيقة أنني لم أكن أعرف هيرمان هسه معرفة حقيقية، ولم أقرأ له من قبل، بل لم أكن قد سمعت به كما ينبغي. بحثت عنه في جوجل، فخرجت لي روايته «السيد هارتا»، فحمّلتها معي إلكترونياً وشرعت في قراءتها بترجمة فؤاد كامل.

لكن ما اكتشفته وأنا أقرأ لم يكن الرواية وحدها، بل كانت السيرة الذاتية لهيرمان هسه التي أدرجها المترجم فؤاد

كامل. وهنا حدث شيء أشبه بالصدمة الفكرية؛ فما إن بدأت أقرأ تفاصيل حياته حتى صعد الأدرينالين فوراً إلى أعلى درجة في جمجمتي، ووجدتني أقول لنفسي: كيف لم أعرف هذا الكاتب من قبل؟

في تلك اللحظة عاهدت نفسي أن يعرف كل العالم، والعمانيون بالأخص، بهذا الكاتب الألماني العبقري الذي كسر أوروبا بأفكار رواياته التمردية، والمستنهضة للبحث عن الحقيقة والذات والمعنى. وما إن أنهيت الرواية حتى فتحت بثاً في تيك توك لأخبر أصدقائي عن هيرمان هسه، وأطرح عليهم الأسئلة العميقة التي عصفت بذهني عندما قرأت سيرته، وجعلتني هذه الأسئلة أكتب هذا المقال فور انتهائي من البث مباشرة.

هيرمان هسه، الكاتب الألماني العبقري الذي حاز جائزة نوبل للأدب سنة 1946، وارتبط اسمه بأعمال أدبية عظيمة مثل «دميان» و«سدهارتا» و«ذئب البراري» و«لعبة الكريات الزجاجية»، لم يكن مجرد كاتب نجح في كتابة روايات حققت الشهرة والانتشار، وإنما كان نموذجاً لإنسان اختار أن يتمرد على كثير من القواعد التي أراد المجتمع أن يضعه داخلها.

ترك المدرسة والدير، وابتعد عن وسائل التعليم التقليدية، وعكف على القراءة والدراسة الحرة بنفسه وذاته، بل وصل به الأمر، في شبابه، إلى التمرد على القوانين المدرسية والأنظمة التقليدية، حتى هدد والده بالانتحار إن هو أُجبر على الالتحاق بالمدرسة رغماً عن إرادته. لم يدرس بالطريقة التقليدية، ولم يكمل تعليمه كما كان متوقعاً منه، لكن رواياته العظيمة لم تحقق له النجاح فقط، بل خلدت اسمه في قائمة رواد الأدب الألماني والعالمي الذين أثروا في الجمهور وتركوا أثراً يتجاوز زمانهم.

لقد تمرد على أشياء كثيرة، لكنه لم يترك القراءة، ولم يتمرد على المعرفة، وإنما اختار طريقته الخاصة في الوصول إليها. وكانت أولى رواياته التي صدرت سنة 1904، «بيتر كامنتسند»، قد صادفت نجاحاً ملحوظاً، وكان موضوعها يدور حول تمرد الأبناء على الآباء، وهي الفكرة التي تبدو وكأنها امتداد مبكر لذلك الصراع الذي عاشه هسه نفسه مع السلطة والتقاليد والنظم التي أرادت أن تحدد له طريقه.

ورغم أنه مر بأزمة وصراعات نفسية أدخلته مستشفى الأمراض العقلية، إلا أن إبداعاته لم تتوقف. جاءت بعد ذلك روايته العظيمة «دميان» التي ذاعت صيتها في العالم كله، وكانت تحمل في داخلها عذابات تلك الفترة

وقلقها وأسئلتها الوجودية، وتحولت إلى عمل أدبي أثّر في أجيال كاملة من القراء، وهو ما يجعلنا نتوقف مرة أخرى أمام تلك النظرية التي كثيراً ما تحدث عنها الناس: الإبداع يولد من رحم المعاناة.

لكن ما دفعني حقاً إلى كتابة هذا المقال هو أن هيرمان هسه ليس عبقرياً فحسب، ألف روايات حققت شهرة ونجاحاً، وإنما كان شجاعاً أيضاً؛ شجاعاً في كسر قواعد التعليم المدرسي التقليدي، وشجاعاً في أن يثبت أن الإنسان قد يمتلك عقلاً استثنائياً حتى لو لم يحمل الشهادة التي يتوقعها المجتمع منه.

وهنا بدأت أسأل نفسي: لماذا لا نرى عبقرياً واحداً من عباقرة عمان ودول الخليج كسر ما كسره هيرمان هسه؟ لماذا لا نرى شخصاً يتمرد على كل القواعد التي وضعها النظام التقليدي، بل والرأسمالي البائد الذي لا يعترف إلا بالشهادة والتخصص، ولا يثبت العبقرية إلا لأصحاب الألقاب والشهادات؟

متى سيظهر عبقري يحطم صنم الشهادات، لا بمعنى إلغاء التعليم أو التقليل من قيمة العلم، وإنما بمعنى أن يثبت أن الشهادة ليست الشرط الوحيد للاعتراف بالعقل المبدع؟ متى سيظهر ذلك الإنسان الذي يشق طريقه المجيد نحو

العالمية، دون أن يحتاج إلى شهادة تعترف له بأنه عالم أو أديب، كما فعل هيرمان هسه؟

هيرمان هسه لم يخلده التاريخ لأنه كان يحمل مجموعة من الشهادات والألقاب، وإنما خلدته أعماله وأفكاره وأسئلته وشجاعته في البحث عن طريقه الخاص. لم ينتظر مؤسسة تمنحه الإذن ليكون كاتباً، ولم ينتظر شهادة تقول له إنه مثقف، بل قرأ ودرس وكتب وتمرد، ثم ترك إنجازه يتحدث عنه.
ربما يكون بيننا اليوم شخص يمتلك فكرة عظيمة، وموهبة استثنائية، وعقلاً قادراً على أن يضيف شيئاً للعالم، لكنه يخشى أن يخرج عن الصف، ويخشى أن يُسأل عن شهادته قبل أن يُسأل عن فكرته، فيختار الصمت والسلامة، ويمضي عمره منتظراً اعتراف مؤسسة به.

ولهذا فإن السؤال الذي أتركه لكم ليس سؤالاً عن الشهادات بقدر ما هو سؤال عن الشجاعة.

متى سيظهر عبقري عماني يحطم صنم الشهادات، ويشق طريقه المجيد نحو العالمية، ويجبر العالم على الاعتراف به من خلال ما ينتجه، لا من خلال الورقة التي يحملها؟
أم أن الجبن مختوم في نواصي عباقرتنا؟!

تزوجي كاتبا!

قضيتُ فترة الصباح في هذين اليومين متنقلةً بين كتاب إسماعيل عرفة الرائع «كلنا مرضى نفسيين»، وبين نتفلكس، رغم أنني قليلة المشاهدة له عادةً. لكنني قررت، هكذا فجأة، أن أجرب عالمًا جديدًا يثير مخيلتي وأفكاري، فدخلت إلى نتفلكس، وكعادتي اتجهت نحو الأعمال التي تدور في المناطق النفسية الغامضة، تلك التي تجعلك لا تكتفي بمشاهدة الحكاية، وإنما تبدأ في تفكيكها ومحاولة معرفة ما الذي يحدث خلف الستار.

ومن بين الأعمال التي ظهرت أمامي شدني فيلم «The Secret Woman»، الذي ترجمته نتفلكس إلى «المرأة الغامضة». لم يكن أكثر ما جذبني إليه في البداية اسم الفيلم ولا أبطاله، وإنما تلك العبارة الصغيرة التي تقول إنه مقتبس من رواية دنماركية تحمل الاسم نفسه للكاتبة «Anna Ekberg». والمفارقة أن Anna Ekberg ليس

اسم مؤلفة واحدة بالمعنى التقليدي، وإنما اسم أدبي استخدمه الكاتبان الدنماركيان أندرس رونّوف كلارلوند ويعقوب فاينرايش، وهما اللذان كتبا الرواية الأصلية التي تحولت إلى هذا الفيلم.

الفيلم نفسه يبدأ من نقطة تبدو بسيطة، لكنها كفيلة بهدم حياة كاملة. امرأة تُدعى لويز تعيش حياة هادئة في جزيرة نرويجية، تدير مقهى صغيرًا، وتستعد للزواج من الرجل الذي تحبه، يواكيم. كل شيء يبدو طبيعيًا إلى أن يظهر شخص غريب وينادیها باسم آخر: هيلين.

في البداية تبدو المسألة مجرد تشابه في الوجوه، لكن المفاجأة أن الأمر أكبر بكثير. فهيلين امرأة دنماركية ثرية اختفت قبل سنوات، وهي متزوجة ولديها طفل وإمبراطورية عائلية في مجال الشحن. ومع إجراء اختبار الحمض النووي، تجد لويز نفسها أمام حقيقة تكاد تكون مستحيلة: هي هيلين نفسها. امرأة فقدت ذاكرتها، وبدأت حياة جديدة من دون أن تعرف شيئًا تقريبًا عن حياتها القديمة. فتعود إلى الدنمارك محاولةً فهم ما حدث في تلك

الليلة التي اختفت فيها، لتكتشف تدريجيًا أن وراء حياتها السابقة شبكة من الأسرار والجريمة والاتجار بالبشر، وأن الرجل الذي كان يفترض أن يكون زوجها وحاميها، إدموند، ليس بريئًا كما يبدو.

أعجبتني هيلين كثيرًا؛ ليس لأنها امرأة خارقة، وإنما لأنها رفضت أن تكتفي بالرواية الجاهزة التي قدمها لها الآخرون عن نفسها. كان يمكنها أن تصدق ببساطة أنها امرأة فقدت عقلها وذاكرتها، وأن ما يحدث حولها مجرد أوهام مرتبطة بمرض نفسي، خصوصًا أن زوجها ومن حوله كانوا يدفعونها باستمرار نحو هذا التفسير. لكن شيئًا داخلها كان يقول إن القصة ليست بهذه البساطة.

ومع ذلك، لم تكن هيلين وحدها في هذه الرحلة.

هنا تحديدًا أحببت شخصية يواكيم، الرجل الذي أحبته هيلين في حياتها الجديدة، والذي يعمل ككاتب في مجال الجريمة والتحقيق. لم يكن دوره مجرد دور الحبيب الذي

يقف إلى جوار البطلة عاطفيًا، بل كان يمتلك تلك الميزة التي أعتقد أنها من أخطر وأجمل مزايا الكتاب: الشك.

الكاتب لا يصدق الحكاية لمجرد أنها قيلت له، ولا يرفضها لمجرد أنها تبدو غريبة. هو يريد أن يعرف: ماذا وراءها؟

ولهذا كان يواكيم يلتقط التفاصيل الصغيرة، ويشعر بأن هناك شيئًا لا يستقيم في الرواية التي يسمعها. وحين تبدأ هيلين في سرد ما تشعر به وما تكتشفه، لا يسارع إلى وضعها في خانة «المجنونة» التي يتوجب تهدئتها، ولا يكتفي بتفسير طبي جاهز، بل يبدأ في التحري والبحث وربط الخيوط. وحين تتكشف الحقائق لاحقًا، يتضح أن ذلك الشعور الأول بأن «هناك شيئًا غير منطقي» لم يكن وهمًا، وإنما كان حدسًا قاده إلى الاقتراب من الحقيقة.

وهنا بدأت أفكر في شيء آخر بعيدًا عن الفيلم نفسه: ما فائدة أن يكون حبيبك كاتبًا؟

تخيلوا معي هيلين لو أنها لم تقع في حب كاتب. تخيلوا لو أن الرجل الذي عاش معها كان شخصًا عاديًا لا يملك تلك المهنة التي تجعله يقضي حياته في قراءة البشر، وتتبع الدوافع، والبحث عن الثغرات، وربط الأحداث التي تبدو منفصلة. هل كان سيصدقها حين تقول إن هناك شيئًا خاطئًا؟ هل كان سيملك القدرة على تصور مؤامرة حقيقية تجري من حولها؟ أم كان سيقول لها ببساطة: «أنت تتوهمين»؟ وربما كان سيصفها بالجنون، أو يطلب منها مراجعة طبيب نفسي، وينتهي الأمر عند هذا الحد.

وهذا تحديدًا ما يجعل الفيلم، بالنسبة لي، يتجاوز كونه فيلم غموض وتشويق إلى فكرة أكثر إثارة: أحيانًا لا تحتاج في حياتك إلى شخص يصدق كل ما تقوله، وإنما تحتاج إلى شخص يعرف كيف يشك بالطريقة الصحيحة.

فالحدس ليس دائمًا وهمًا، والشك ليس دائمًا مرضًا، والبحث عن تفسير آخر لا يعني بالضرورة أننا نعيش في

عالم من المؤامرات. أحيانًا تكون المشكلة أننا تعودنا على قبول الرواية الأولى لأنها الأسهل، بينما الحقيقة غالبًا تختبئ في التفاصيل التي لا ينتبه إليها أحد.

وهنا تأتي ميزة الكاتب.

فالكاتب، بحكم عمله، يعيش في حالة دائمة من الاستجواب. يقرأ، ويقارن، ويربط، ويبحث عن الدافع الخفي خلف التصرف الظاهر. حتى عندما يقرأ رواية، لا يمر عليها مرورًا عابرًا؛ يسأل نفسه لماذا قال هذا الشخص ذلك؟ لماذا اختار الكاتب هذه الكلمة؟ لماذا ظهر هذا التفصيل في هذا الموضع؟ ماذا لو كان ما أراه ليس الحقيقة كاملة؟

وبمرور الوقت تتحول هذه المهنة إلى طريقة في النظر إلى العالم.

ولذلك أعتقد أن وجود كاتب في حياتك ليس مجرد امتلاك شخص يستطيع أن يكتب لك رسالة حب جميلة، أو يصوغ لك اعتذارًا بليغًا، أو يحول مشاعرك إلى قصيدة. هذه ربما أبسط فوائد الكاتب.

الفائدة الحقيقية أنك قد تجد إلى جوارك شخصًا يستطيع أن يجلس معك وسط الفوضى، بينما الجميع يقول لك: «الأمر واضح»، ثم ينظر إليك ويقول: «لا، انتظري... هناك شيء لا يبدو منطقيًا هنا.«

وقد تكون تلك الجملة وحدها، في بعض مراحل الحياة، أثمن من ألف كلمة مواساة.

لأن العالم ليس دائمًا لطيفًا، والبشر ليسوا دائمًا صريحين، والحقيقة ليست دائمًا هي الرواية التي يتفق عليها الجميع. وفي لحظات معينة قد تجد نفسك واقفًا وحدك في مواجهة قصة يرويها الجميع عنك، بينما أنت الشخص الوحيد الذي يشعر أن شيئًا ما ليس صحيحًا.

وهنا تحديدًا تفهم قيمة أن يكون في حياتك كاتب.

ليس لأنه سيصدقك دائمًا، بل لأنه سيمنحك فرصة نادرة: أن تُسمع قصتك كاملة قبل أن يحكم عليها.

وصدقني، سيأتي يوم يواجهك فيه شيء من بشاعة هذا العالم، ويقف الجميع في الجهة الأخرى، ويخبرونك أنك تتوهم، وأنك تبالغ، وأن الأمور ليست كما تراها. وفي تلك اللحظة قد يكون أجمل ما يحدث لك أن يقف إلى جوارك شخص لا يكتفي بسماع روايتك، بل يبدأ في البحث خلفها.

قد يفتح كتابًا، ويبحث عن معلومة، ويتتبع تاريخًا، ويربط حادثة بأخرى، ويعود إليك بعد ساعات أو أيام ليقول لك: «كنت أشعر أن هناك شيئًا غريبًا... ووجدت شيئًا يؤكد ذلك.»

عندها ستعرف أن فائدة أن يكون حبيبك كاتبًا لا تكمن فقط في أنه يعرف كيف يكتب عن الحب، وإنما في أنه يعرف كيف يقرأ الحياة.

فالكتّاب، في نهاية الأمر، قرّاء محترفون للبشر أيضًا. وكل كاتب حقيقي يحمل داخله محققًا صغيرًا لا يهدأ؛ ذلك الذي يكره التفاصيل المبتورة، ويشك في المصادفات الكثيرة، ويعرف أن وراء كل حكاية حكاية أخرى قد تكون أكثر أهمية منها.

ولهذا، إن كنت تبحث عن حبيب، فلا تبحث فقط عمن يكتب لك أجمل كلمات الحب.

ابحث عمن يستطيع، حين ينقلب العالم كله ضدك، أن ينظر في عينيك ويقول: «أنا لا أعرف بعد ما الذي يحدث... لكنني لن أتهمك بالجنون قبل أن أبحث معك عن الحقيقة.»

تلك، في رأيي، واحدة من أجمل فوائد أن يكون حبيبك كاتبًا

فيكتور هوجو وسورة الزلزلة

قضيتُ خمسة أيام تقريباً في رحلة عقلية ممتعة ومهيبة بين صفحات رواية "من العالم الآخر" للكاتب الفرنسي برنار فربير. كانت رحلة مليئة بالقضايا والمعلومات المثيرة التي دفعتني للحماس والبحث الاستقصائي مستعينةً بكل طريقة ذكية وممكنة لفك شفرات ما قرأت. ومما شدّ انتباهي وأشعل في داخلي رغبة عارمة في التقصي، صفحتان محددتان من الرواية (من الصفحة 381 إلى 382) تتناولان مرحلة غامضة ومفصلية من حياة الأديب والشاعر والفيلسوف الفرنسي الشهير فيكتور هوجو. يأخذنا النص الروائي إلى عام 1852، حين لزم هوجو عزلة اختيارية وقسرية في جزيرة جيرسي عقب الانقلاب السياسي لنابليون الثالث وإقصائه. هناك، في تلك الجزيرة المعزولة، أقنعته إحدى صديقاته الشاعرات ببدء تجربة غريبة عليه تماماً، وهي جلسات "تحضير الأرواح" عبر ما كان يُعرف بالموائد الدوّارة عام 1853. ورغم تشككه الشديد وسخريته في البداية، إلا أن اهتزاز الطاولة في إحدى الجلسات الليلية وظهور روح ادّعت أنها ابنته المتوفاة غرقاً "ليوبولدين" قلَب موازينه الفكرية رأساً على عقب؛ فتحول من التشكك إلى الإيمان المتحمس، وشرع

يدوّن بدقة بالغة حواراته المزعومة مع أرواح الموتى والشخصيات التاريخية والأسطورية باللغة الفرنسية. استمرت هذه اللقاءات الليلية الغامضة حتى عام 1855، وتوقفت فجأة وبشكل دراماتيكي بعد إصابة أحد المشاركين بنوبة جنون صاعقة أدت لنقله مباشرة إلى المصحة العقلية، ليعقب ذلك إبعاد هوغو عن الجزيرة لأسباب سياسية وانتقاله إلى جزيرة غيرنيزي، تاركاً خلفه أثاث منزله وقد حفر عليه بيده أسماء العظماء الذين زعم أنه تواصل معهم من العالم الآخر.

هذا النص الروائي المثير فتح أمامي بوابات التساؤل حول علاقة هذا الأديب العالمي بالروحانيات والماورائيات، لكن ما أثار دهشتي وصدمتي الحقيقية كان عندما تعمقت في البحث عن قصائده وأعماله المرتبطة بالشرق، لأجد قصيدة مشهورة له بعنوان "آية من القرآن"، صاغها وهو متأثر بشكل كلي وصريح بكلمات وآيات سورة شهيرة من القرآن الكريم وهي سورة الزلزلة.ووردت هذه القصيدة في ديوانه الملحمي المعنون بأسطورة العصور ،وهو أشبه ما يكون بملحمة تاريخية للعصور البشرية وتقلباتها من الظلمات للنور. وسورة الزلزلة هي السورة الوحيدة التي تأثر بها فيكتور هوجو في ديوانه كله بالقرآن الكريم. يقول هوجو في هذه الأبيات مستلهماً المَشاهد القيامية:

" ستزلزل الأرض زلزالاً شديداً، وسيقول الناس: ما لها؟ يومئذ، وهم يخرجون من الظلمة في حشد مثل ثعابين، غبراً، يقبل الموتى ليروا أعمالهم، فالذين عملوا الشر مقدار نملة يروه، ويكون الله لهم أقل وداً؛ والذين عملوا الخير ما يزن ذبابة يروه، ويكون الشيطان لهم أقل لذّاً."

إن هذا التناص البديع والعميق مع النص القرآني جعلني أضرب أخماساً بأسداس، ودفعني للبحث بشكل أعمق في ديوان آخر كتبه ونشره بعد تلك الحقبة الطويلة من جلسات استحضار الأرواح، وهو ديوان "التأملات" الذي يضم قصيدته الشهيرة الفلسفية "ما يقوله الفم المظلم".. تبدأ القصيدة بمشهد رمزي غاية في الغموض، يروي فيه هوجو أنه كان واقفاً قرب "دولمن" (وهو نصب حجري قديم يرتبط بالمقابر والطقوس القديمة)، فظهر له كائن غامض أو "شبح" من العالم الآخر، وبدأ يكشف له أسرار الكون، والروح، والخلق، والمصير، وكأنها عملية تلقين غيبي.

من هنا ينبثق السؤال الجوهري الذي عصف بذهني وأرّق تفكيري:ما هي قصة ذلك الشبح الذي ظهر له عند حجر دولمن؟ وما علاقة سورة الزلزلة وسرها العظيم الذي يعرفه الكثير من الروحانيين من قراء القرآن وحفظته، وبالأخص أرباب التصوف والباطنية الذين يرون فيها

طاقة كبرى تتعلق بالتحولات الكونية وتطهير الأرواح، ما علاقتها بكل تلك التجربة الروحية القاسية التي عاشها هوجو مع الطاولات المستديرة واستنطاق الموتى؟

المثير للدهشة والريبة معاً أن هذه السورة العظيمة لا تزال تشكل مركزاً لافتاً في الأحداث الجيوسياسية والروحية المعاصرة؛ فهي السورة الوحيدة التي غردت بآياتها حسابات تابعة للاحتلال الإسرائيلي على منصة إكس (تويتر) عند بداية حدث "طوفان الأقصى" الذي هز المنطقة، وهي السورة ذاتها التي غردت بها حسابات إيرانية عقب الهجمات الأخيرة، وكأن هناك إدراكاً جمعياً، خفياً وسياسياً، بقدرة هذه السورة على التعبير عن الهزات الوجودية الكبرى، والربط الدائم بينها وبين الأرواح والماورائيات والعالم الآخر. والآن، نكتشف أن هذه السورة العظيمة كانت ملهمة للأديب الفرنسي الكبير، الذي تذهب بعض الروايات التاريخية المتداولة إلى الزعم بأنه اعتنق الإسلام في أواخر حياته وكتم إيمانه خوفاً من الملاحقات السياسية والاجتماعية في فرنسا القرن التاسع عشر. فهل كان هوجو يدرك، عبر أرواح الشعر التي تلهمه وشياطينه التي كانت تلقمه الكلمات كما كانت تلقم المتنبي وشعراء الجاهلية وادي عبقر، السر الروحاني الباطني لسورة الزلزلة؟ أم أن كل هذه التجليات والأبيات الدقيقة لم تكن سوى ثمرة طبيعية لإطلاعه الواسع على

الآداب الشرقية وتعمقه المعرفي في قراءة القرآن الكريم وسوره وآياته؟

حل لغز إيميلي روز الشهير

في نوبة من الفضول والبحث عن الماورائيات التي ترتبط بعلم النفس، وبعد انقطاع طويل عن متابعة هذا النوع من القضايا النفسية المعقدة بعد إنقطاع شبه طويل عن دبلومات علم النفس وخاصة علم النفس الأكلينيكي ، دخلت إلى إحدى وسائل التواصل الاجتماعي التي أمتلكها، فظهر لي مقطع يتحدث عن قصة إيميلي روز الشهيرة. وكما يعرف كثيرون، فإن قصة إيميلي روز التي تحولت إلى فيلم عالمي مأخوذة في الأصل من قضية الشابة الألمانية أناليزه ميشيل، التي بدأت حياتها بشكل طبيعي قبل أن تعاني من نوبات صرع واضطرابات عصبية دفعتها إلى تلقي العلاج الطبي. ومع مرور الوقت بدأت حالتها تتطور و تظهر عليها أعراض أكثر غرابة، من سماع أصوات ورؤية أشياء غير موجودة وسلوكيات غير مألوفة مثل التحدث بأصوات مختلفة ولغات متنوعة لم تكن تعرفها، حتى وصل الأمر إلى تغيرات كبيرة في شخصيتها وطريقة حديثها وتصرفاتها، وهو ما دفع الكثيرين إلى الاعتقاد بأنها تعاني من حالة مس أو تلبس روحي. وبعد أن فقدت العائلة ثقتها بقدرة العلاج الطبي على تحسين حالتها، اتجهت إلى جلسات العلاج الروحي وطرد الأرواح، لكن حالتها استمرت في التدهور حتى انتهت بوفاتها، لتبقى قصتها حتى اليوم واحدة من أكثر القضايا

إثارة للجدل بين أنصار التفسير الروحي وأنصار التفسير الطبي.

ورغم أن الرواية الشائعة للقضية تدور حول الصراع بين العلم والدين، فإن هناك فرضية أخرى تثير اهتمامي أكثر من غيرها. فبحكم اطلاعي المتواضع على بعض الجوانب المتعلقة بالأمراض النفسية والعصبية والأدوية المستخدمة في علاجها، أرى أن هناك احتمالاً يستحق التفكير والنقاش، وهو أن ما حدث لإيميلي روز ربما لم يكن نتيجة مرض روحي كما اعتقد كثيرون، بل ربما كان مرتبطاً بشكل كبير بالتأثيرات الدوائية نفسها للمرض الذي كانت تتعالج منه من البداية . فمن المعروف أن بعض الأدوية العصبية والنفسية قد تسبب لدى بعض الأشخاص أعراضاً جانبية شديدة ومعقدة، تشمل تغيرات في الإدراك والمزاج والتفكير وحتى تغيرات في الصوت ،وهذا مثبت علميا في كل دواء، وفي حالات نادرة قد تظهر أعراض ذهانية أو هلاوس أو اضطرابات سلوكية حادة. وإذا افترضنا أن إيميلي لم تتحسن مع العلاج، أو أنها عانت من آثار جانبية قاسية، فإن ترك العلاج لاحقاً والتوجه نحو العلاج الروحي ربما أدى إلى ظهور أعراض انسحابية شديدة. أو إلى تفاقم الحالة العصبية والنفسية بشكل أكبر، وهو ما قد يفسر جزءاً من التحول الكبير الذي طرأ على شخصيتها وسلوكها.

وبالنسبة لي، فإن أكثر ما يلفت الانتباه في القضية هو التشابه المذهل بين بعض الأعراض النفسية الشديدة وبين الأوصاف التقليدية لما كان يسمى قديماً بالمس أو السحر أو التلبس. فالشخص الذي يسمع أصواتاً غير موجودة، أو يرى مشاهد لا يراها الآخرون، أو يتحدث بطريقة مختلفة، أو يعتقد أن هناك قوى خفية تتحكم به، قد يبدو لمن حوله وكأنه يعيش تجربة خارقة للطبيعة، بينما قد يكون في الواقع يعاني من اضطراب نفسي أو عصبي معقد دخل إليه قد يكون بسبب عرض جانبي لدواء معين أو عرض انسحابي لدواء عصبي آخر. وهذا يقود إلى سؤال مهم: كيف استطاع الناس عبر التاريخ التمييز بين المرض الروحي والمرض النفسي قبل ظهور الطب الحديث؟ وهل كانت هناك آلاف الحالات التي فُسرت على أنها ظواهر غيبية بينما كانت في حقيقتها حالات مرضية لم تكن مفهومة في ذلك الزمن؟حيث أن قضية إيميلي روز كانت في بدايات الثورة الطبية النفسية ،حيث لا تزال الأدوية في بداياتها، وهذا ما يؤكد نظريتي التي تقول أن تطور حالتها كان بسبب الأعراض الجانبية والانسحابية التي سببه الدواء التي كانت تتناوله .

كما تطرح القضية سؤالاً آخر لا يقل أهمية: لو اكتشف الباحثون مستقبلاً أدلة قوية تثبت أن جانباً كبيراً مما حدث

لإيميلي كان مرتبطاً بالآثار الجانبية أو الانسحابية للعلاج، فهل سيتغير فهمنا الكامل للقضية؟ وهل سننظر إليها باعتبارها واحدة من أكبر حالات سوء الفهم الطبي في القرن العشرين؟ قد لا يكون من السهل إعادة فتح الملفات القانونية بعد عقود طويلة، لكن إعادة تفسير الأحداث علمياً تبقى أمراً ممكناً دائماً كلما تطورت المعرفة الطبية.وتطرح قضية مسؤولية الشركات الأدوية ومدى تحملها لجزء مما يحصل للمرضى .

وهنا تظهر قضية أخرى أكثر حساسية، وهي أن كثيراً من الناس لا يدركون أن الإنسان قد يتحول خلال فترة قصيرة من شخص طبيعي إلى شخص يعاني من هلاوس وذهانات واضطرابات إدراكية شديدة نتيجة تفاعل معقد بين المرض والدواء والعوامل النفسية. وهذا لا يعني أن الأدوية النفسية أو العصبية شريرة بطبيعتها، فهذه الأدوية حسنت حياة ملايين المرضى حول العالم، لكن ذلك لا يمنع من الاعتراف بأن بعض الحالات قد تتعرض لمضاعفات خطيرة أو لتشخيصات غير دقيقة أو لمتابعة علاجية غير كافية.

ومن زاوية فلسفية مثيرة للتأمل، يبرز رابط غريب بين الكيمياء الدوائية الحديثة والخيمياء القديمة. فالخيميائيون عبر التاريخ كانوا يبحثون عن مواد قادرة على تغيير

الوعي والإدراك البشري وإدخال الشخص في مرحلة النيرفانا التي ينفصل فيها الشخص عن الواقع ويتحد بقوة أعلى ، بينما تعتمد الأدوية الحديثة على مركبات كيميائية معقدة تؤثر بصورة مباشرة في الدماغ والجهاز العصبي وتسبب نفس الفصل للشخص الذي لديه استعداد وقابلية لذلك.صحيح أن الفرق بين العلم الحديث والخيمياء القديمة هائل، لكن النتيجة النهائية تبقى مثيرة للتساؤل: كيف تستطيع مادة كيميائية أن تغير طريقة إدراك الإنسان للعالم من حوله؟ وكيف يمكن لبعض الأشخاص الذين يملكون استعداداً نفسياً أو عصبياً معيناً أن يعيشوا تجارب إدراكية شديدة الغرابة تجعل الحدود بين الواقع والخيال ضبابية إلى هذه الدرجة؟بحيث يدخلون لعالم غيبي ويخترقون حجب محجوبة عنا من العوالم الأخرى .

ولعل ما يجعل هذه الأسئلة أكثر إلحاحاً هو أن قضية إيميلي روز ليست الحالة الوحيدة التي تدفع البعض للتساؤل حول دور الأدوية والآثار الجانبية المحتملة في بعض المآسي الإنسانية. فهناك من يربط بين بعض الحوادث المعاصرة وبين احتمالية وجود تأثيرات دوائية أو نفسية معقدة لم تُفهم بالكامل بعد. ومن بين القضايا التي أُثير حولها الجدل مؤخراً قضية بسنت سليمان في مصر، حيث طرح بعض المعلقين فرضيات مختلفة حول دور الحالة النفسية أو العلاجات التي كانت تتلقاها، رغم عدم

وجود أدلة قاطعة تثبت هذه التفسيرات. ومع ذلك فإن مجرد ظهور مثل هذه التساؤلات يعكس حجم القلق الموجود لدى الناس تجاه الآثار الجانبية المحتملة لبعض الأدوية النفسية والعصبية.

وفي النهاية، قد يختلف الناس حول تفسير قضية إيميلي روز، وقد يستمر الجدل بين من يراها قضية روحية ومن يراها قضية طبية بحتة، لكن الفرضية التي أجدها جديرة بالتأمل هي أن الفتاة ربما كانت عالقة بين مرض عصبي حقيقي وآثار دوائية معقدة وأعراض انسحابية محتملة، وأن ما اعتبره كثيرون دليلاً على ظاهرة ماورائية ربما كان في جانب منه انعكاساً لصراع بيولوجي ونفسي لم يكن مفهوماً بشكل كافٍ في ذلك الوقت. وربما يكون السؤال الأهم الذي تتركه لنا هذه القضية هو: متى سيصل العلم إلى مرحلة يستطيع فيها فهم جميع التأثيرات العميقة التي يمكن أن تتركها بعض الأدوية على العقل البشري؟ ومتى سيصبح النقاش حول سلامة الأدوية وشفافية الشركات المصنعة لها أكثر وضوحاً وقوة؟ شاركونا آراءكم حول هذه الفرضيات والتساؤلات.

الواسطة مقبولة لكن بشرط!

في ليلة من ليالي شوال العظيمة، وبعدما ودعنا رمضان المبارك، جلست في خلوة مع نفسي، أحدثها وتحدثني، فرددت بداخلي: "اللهم اجعل القرآن ربيع قلبي". لجأت إلى وردي اليومي، أنهل منه، وأتمعن في آياته، وربي كريم لم يحرمني من لطائفه ورحماته، حتى أصبحت بفضل الله تعالى لا أقرأ وردًا في يوم بخشوع ولذة إلا كشف الله لي من معاني كلماته وأسراره. وصدق المفكر نايف النهار حين قال: "القرآن يتفاعل مع المتفاعل فقط."
وفي لحظة رائعة من التجلي كنت أقرأ سورة النساء حتى وصلت للآية رقم 85 التي يقول الله تعالى فيها: "مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَة
يكن له نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يكن له كِفْلٌ مِنْهَا." جلست أتأمل البلاغة الربانية في هذه الآية، وسألت نفسي: لماذا قال الله "نصيب" للشفاعة الحسنة، و"كفل" للشفاعة السيئة؟

بحثت عن أقوال العلماء، ووجدت شيئًا قليلًا فحسب، غير أن التفسير الذي شدني هو تفسير المفكر العراقي فاضل السامرائي، الذي يرى أن النصيب يتضمن الجزء الكبير

وزيادة، وهو ما يستخدم للحسنة لأنها تُضاعف بعشر أمثالها، أما الكفل فيُستخدم للسيئة لأنها جزاء السيئة مثلها فحسب. ولكن حين تذكرت قوله تعالى: "يؤتيكم كفلين من رحمته"،حيث استخدم هنا الكفل للحسن. شعرت أن هناك معنى أعمق يحتاج لتفسير أدق. ففكرت في معنى الكفالة في واقعنا اليوم، وكيف نقول في حياتنا: "فلان كفيل عن فلان"، أي يتحمل جزءًا من المسؤولية عن تصرفه. وهنا يتضح المعنى الرباني: من يشفع لشخص سيئ وهو يعلم بسوء فعله، يتحمل جزءًا من أثر ذلك، ليس في الآخرة فقط، بل في الدنيا أيضًا، ككفالة للأعمال، حتى وإن كان القانون لا يعاقبه. أما الشفاعة الحسنة فهي مختلفة، فهي لأجل من يستحق، وثمارها في الآخرة فقط وهي كبيرة، فهي نصيب يتضاعف، لأن الحسنة بعشر أمثالها، وكل حسنة تدخل في ميزان من يستحقها.أما في الدنيا ،فكل محسن لعمله وإن شفعت له فحسنته لنفسه. لذلك جعل الله نصيب الشفاعة الحسنة كبير وأضعاف مضاعفة، وجعل كل ذلك في الآخرة فقط .

ومن هذا التأمل نستفيد درسًا مهمًا في حياتنا اليومية، وهو أن أي توسط أو توصية يجب أن تكون مدروسة، فالشفاعة ليست مجرد كلمة، بل هي مسؤولية. من يشفع لشخص غير أهل للثقة أو المنصب، فهو يتحمل جزءًا من نتائج أفعاله، حتى لو لم يعاقبه القانون. أما من يشفع لمن

يستحق، فينال أجرًا عظيمًا، حتى لو لم يكن له مردود مادي في الدنيا، وهذا يربطنا بمبدأ تشجيع الكفاءات والمؤهلين في المجتمع، سواء في التعليم أو الوظائف أو الأعمال الخيرية. كما أن الشفاعة الحسنة أجرها أضعاف الحسنة نفسها، فكل نصيحة صالحة أو دعم لمشروع نافع أو مساعدة لمن يستحق، يمتد أثره أضعافًا مضاعفة. القرآن يحثنا على التفكير بعواقب أعمالنا ليس فقط على المستفيد، بل على أنفسنا أيضًا. الله عز وجل ميز بين الشفاعة الحسنة والسيئة ليعلمنا حكمة التوسط: من ينحاز للخير، فله نصيب عظيم، ومن يشفع للشر، يتحمل وزره ككفالة في الدنيا ،وكمثل الوزر في الآخرة، وهذه طريقة ربانية تربط الإنسان مباشرة بالنتائج، وتعلم المجتمع احترام الكفاءة والاستحقاق.

وفي نهاية هذا التأمل أسأل الله أن يوفقنا لما يحب ويرضى، وأن يجعلنا سببًا في نصيب الخير لمن يستحق، وأن يحفظنا من حمل ما لا نستحقه، وأن تكون شفاعتنا دائمًا لأجل الحق والخير، لا للشر والضرر. فالقرآن علمنا كيف نجعل مسؤوليتنا متصلة بأفعالنا وأفعال من نؤثر فيهم، ليصبح الدين دليلًا عمليًا للوعي بالمسؤولية والعدالة في حياتنا اليومية، ويجعل من كل شفاعة حسنة نصيبًا عظيمًا في الآخرة.

الصدق المطلق والعدالة

من عادتي في القراءة أن أراوح بين كتابٍ دسمٍ يغذّي الفكر، وروايةٍ تأخذني إلى عوالم مختلفة، تخفّف عني ثقل الواقع وتمنحني لحظات من المتعة الذهنية. لكنني حين اخترت رواية المعترِضة لغراهام مور، كنت أظنها واحدة من تلك الروايات التي تُقرأ ثم تُطوى، فإذا بها تفتح في ذهني أبوابًا لا تُغلق، وتدفعني إلى التفكير المتواصل لثلاثة أيام متتالية.

في البداية، دعونا نأخذ لفة سريعة على الرواية..
تدور أحداث الرواية حول قضية اختفاء فتاة مراهقة ثرية اسمها جيسكيا سيلفر تبلغ من العمر 15 سنة، حيث يُتهم معلمها بجريمة خطيرة بعد العثور على أدلة ضده، مثل رسائل مريبة حميمية. وآثار دماء في سيارته.الرواية تسلط الضوء على الاتهام الموجه إلى معلمها الشاب بوبي نوك .
وسط هذا الصخب، تظهر مايا سيل، شابة ضمن هيئة المحلفين الاثني عشر التي تدرس القضية. مايا واثقة من

براءة المتهم، وعلى الرغم من المعارضة الشديدة، تُقنع هيئة المحلفين بإصدار حكم البراءة. هذا القرار الجريء يغير حياتها إلى الأبد، حيث تصبح لاحقًا محامية دفاع شهيرة .
القصة تأخذ منعطفًا جديدًا بعد مرور عشر سنوات، عندما يُعاد تسليط الضوء على القضية من خلال برنامج وثائقي يجمع أعضاء هيئة المحلفين مجددًا.حيث يثير المحلف المهووس بالقضية المدعو ريك ، الشكوك حول صحة الحكم عبر لقاءات وبرامج تلفزيونية. لكن المفاجآت لا تنتهي هنا؛ إذ يُعثر على هذا المحلف مقتولا بعد شجار مع المحلفة المعترضة على حكمه المدعوة مايا ، وتشير الأدلة بشكل مريب إلى مايا نفسها. هنا يبدأ الجزء الأكثر إثارة في الرواية، حيث تجد مايا نفسها مضطرة للبحث عن الحقائق التي حاول الجميع إخفاءها سابقًا لتبرئة نفسها. الرواية تتشابك بين الماضي والحاضر، مما يجعل القارئ متلهفًا لاكتشاف الأسرار الدفينة.وفي نهاية القصة ومع سيل من الحقائق والإتهامات والأسرار التي تنكشف ،تظهر الحقيقة بصورة صادمة ومثيرة ومدهشة ،وتتصادم الحقائق في رأس مايا التي تسعى لتبرئة نفسها ،والوصول للحقيقة ،لكن ما ستكتشفه سيضعها في موقف صعب ويخيرها بين ضرورة قول الحقيقة كاملة وتوريط الكل حتى لو دفع الأبرياء الثمن ،أو التغاضي والتكتم وإن دفع

البعض ثمن خطأ شخص واحد لا مجال لمعاقبته طالما لم يثبت دليل ضده؟

هذه الرواية وأنا أتأملها بعد أن أنهيتها لا تطرح مجرد قصة، بل تفتح أبوابًا لقضايا فلسفية عميقة، من أبرزها: هل قول الحقيقة لدى القانون دائمًا منجاة؟ ولماذا يخاف الناس من قول الحقيقة كاملة؟ يظهر ذلك جليًا في قصة مايا، التي تجد نفسها أمام حقيقة تعرفها، لكنها تدرك في الوقت ذاته أن قولها قد لا يؤدي إلى العدالة، بل ربما إلى ظلمٍ جديد.

كما تتجلى هذه الإشكالية في قصة المحلّفة ليلا، التي كانت على علاقة سابقة بالمتهم بوبي وأنجبت منه طفلًا. هذه الحقيقة، لو كُشفت، قد تغيّر مجرى القضية بالكامل. لكن المفارقة الكبرى تأتي عندما يتفق المحلفون – بعد معرفتهم بالجريمة التي ارتكبتها المحلفة ليلا ضد ريك الذي هددها بكشف علاقتها مع المتهم، فقتلته لتحمي ابنها– على تغيير بعض الحقائق أو التغاضي عنها، ليس بدافع الفساد، بل لإنقاذ حياة طفل بريء، هو ابن ليلا. هنا يتصدع مفهوم العدالة التقليدي: هل العدل هو تطبيق القانون حرفيًا، أم حماية الأبرياء حتى لو اقتضى ذلك تحريف الحقيقة؟

هذا يقودني إلى تساؤلات أعمق: لماذا لا يثق الناس في القانون؟ هل لأن القوانين، كونها وضعية، قد تظلم البريء؟ هل يمكن أن يُدان إنسان فقط لأن في سيارته بقع دماء أو حمضًا نوويًا أو قلادةً تعود للضحية، رغم أن كل ذلك قد يكون مدسوسًا؟ أليس من الممكن أن تتحول الأدلة نفسها إلى أدوات تضليل؟

ومن القضايا التي أثارتها الرواية في داخلي: لو قال كل شخص فيها الحقيقة كاملة، هل كان الصدق سيؤدي فعلًا إلى النجاة؟ أم أن الصدق، في بعض الأحيان، قد يكون طريقًا إلى الهلاك؟ وإن كنت مكان أحد الشخصيات، هل كنت سأختار الصمت لحماية شخص أظن أن القانون لن ينصفه؟ أم أقول الحقيقة مهما كانت العواقب؟

بل أكثر من ذلك، هل يثق الجميع في القانون فعلًا؟ القانون الذي صاغه بشر مثلنا، تحكمه اجتهاداتهم وحدود فهمهم، ما مدى عدالته ونزاهته؟ وهل يمكن أن يكون مطلق العدالة؟

وهنا أدركت سرًا عميقًا: حتى لو التزم الجميع بالصدق، فإن العدالة ليست مضمونة. وهذا ما يفسر قول النبي صلى الله عليه وسلم: "قاضيان في النار وقاضٍ في الجنة"، في إشارة إلى أن الحكم ليس مجرد معرفة

الحقيقة، بل يحتاج إلى بصيرة وعدل ونزاهة تتجاوز ظاهر الأمور.

وفي النهاية، يبقى السؤال الأهم: لو كنت مكان مايا، وبعد أن انكشفت لك حقيقة لا يعرفها القانون، هل ستصمت لتحمي نفسك وأبرياء آخرين؟ أم ستنطق بالحقيقة، ولو كان الثمن فادحًا؟

ربما لا تقدم الرواية إجابات، لكنها تضعنا أمام مرآة صعبة: هل القانون يحمي الصادق فعلًا؟ أم أن الحقيقة، في بعض الأحيان، تحتاج إلى شجاعة أكبر من أن تُقال؟ .
لعل الرواية لا تجيب على الأسئلة، لكن تثير مخيلتك لمعضلة قانونية فلسفية ضخمة ،وهي هل القانون يحمي الصدق المطلق؟
قد تكون إجابتك بنعم ،أو لا،خياران لا ثالث لهما. لكن تأكد أنك لن تعرف الحقيقة المطلقة حتى تكون أنت المتهم، والقضية قضيتك .

حوارات تيك توكية

في غمرةٍ من الملل، وبدافع من الفضول لخوض تجربة جديدة، دخلت كعادتي لأفتح بثًا مباشرًا في تيك توك. لم أكن أتوقع أن تمتد الجلسة قرابة الساعة، ولا أن تتحول إلى دردشة ثقافية جميلة جمعت أشخاصًا من مختلف شرائح المجتمع. وبين موضوع وآخر، اتجه الحديث نحو القراءة، ذلك الموضوع الذي لا يشيخ مهما تغيرت المنصات وتبدلت اهتمامات الناس.

طرح أحد الحاضرين السؤال الذي يتكرر على ألسنة معظم المبتدئين في القراءة: كيف أدفع نفسي إلى المواظبة على القراءة؟ فكانت إجابتي هي نفسها التي أؤمن بها دائمًا؛ وهي أن جميع القراء الحقيقيين يشتركون في سمة أساسية، تتمثل في حب السؤال ودافع الفضول. فالقراءة والفضول تربطهما علاقة لا تنفصم؛ القراءة تولد الأسئلة، والأسئلة تقود إلى قراءة جديدة، في دائرة معرفية لا تنتهي. فإذا مات الفضول ماتت القراءة، وإذا توقفت القراءة خمدت الأسئلة.

ثم جاء سؤال آخر أكثر عمقًا: كيف أحافظ على دافعية القراءة؟ فأنا أقرأ فترة ثم أفتر. فأجبته بأن المشكلة ليست في القراءة نفسها، وإنما في طريقة التعامل معها. فالقراءة ليست استهلاكًا للمعلومات، وإنما هي ممارسة للحياة. ما تقرؤه ينبغي أن تراه في الواقع، وأن تربط به تفاصيل حياتك اليومية، وأن تدخل به في حوارات ثقافية، وأن تكتب عنه مقالات فكرية، وأن تنشر ما تعلمته بين الناس. حينها تتحول المعرفة إلى جزء من شخصيتك، ويصبح الاستمرار في القراءة حاجة لا عادة مؤقتة.

انتقل الحديث بعد ذلك إلى قضية عزوف الشباب عن القراءة وطلب العلم، ولا سيما عند بلوغ منتصف العمر. وذكر أحد الحاضرين رأيًا يستحق التأمل؛ إذ قال إن الإنسان في تلك المرحلة يكون قد حقق معظم أحلامه التقليدية: وظيفة، وزوجة، ومنزل، وسيارة، وأبناء، وربما منصبًا اجتماعيًا، فيشعر أن القراءة لن تضيف إليه شيئًا ملموسًا وفق المقاييس التي يفرضها المجتمع. ولذلك يتوقف عن التعلم لأنه يعتقد أنه وصل إلى غايته.

وأرى أن هذه النظرة ليست مسؤولية الأفراد وحدهم، بل هي نتاج ثقافة اجتماعية رسخت فكرة أن قيمة الإنسان تقاس بما يملك، لا بما يعرف. ولذلك لا يحظى المثقف ولا القارئ بالتقدير الذي يليق بجهوده، ولا تلقى الأعمال

البحثية والتحقيقية اهتمامًا يوازي ما تتطلبه من جهد ووقت، فينشأ جيل يرى الثقافة ترفًا لا ضرورة، والهواية الأخيرة التي يمكن التضحية بها عند ازدحام الحياة.

ومن هنا قادنا النقاش إلى مقارنة المشهد الثقافي في سلطنة عمان بين عامي 2008 و2010، وهي فترة شهدت نشاطًا ثقافيًا ملحوظًا، وحراكًا فكريًا غنيًا في المنتديات والمجالس والمواقع الإلكترونية، قبل أن يخفت ذلك الزخم تدريجيًا. فقد تحولت بوصلة الاهتمام نحو الاقتصاد، وشؤون المجتمع، والسياسة، وانصرف كثير من المثقفين والقراء عن القضايا الفكرية، وكأن القراءة التي كانوا يمارسونها لم تكن غاية في ذاتها، بل وسيلة لتحقيق مصالح أو حضور اجتماعي. ومع تغير الموجة، ركب كثيرون الموجة الجديدة، وتركوا الفكر جانبًا، واتجهوا إلى القضايا اليومية التي تحقق انتشارًا أسرع وربحًا أكبر، رغم أن أغلبها لا يلبث أن يتحول إلى زوابع إعلامية سرعان ما تنطفئ، تاركة خلفها مجتمعًا أكثر ضجيجًا وأقل معرفة.

وفي خضم هذا الحديث، سألني أحدهم: ما أعظم التحديات التي تواجهك أثناء القراءة؟ فكانت إجابتي أنني أعاني من ضعف الإنتاج الفكري والديني المعاصر. فنحن نفتقر إلى مشاريع تجديد فكري جادة، وإلى مؤلفات دينية حديثة

تعالج أسئلة الإنسان المعاصر بلغته وهمومه. كما نعاني من شح في الكتب الفكرية والثقافية مقارنة بما يغرق به السوق من روايات، ودواوين شعر، وإصدارات أدبية تحظى بحملات ترويجية واسعة، وبرامج ومسابقات تحتفي بأصحابها، في حين يبقى الكتاب الفكري في الظل، وكأن المعرفة العميقة لم تعد سلعة رائجة في زمن السرعة.

وبينما كان الحوار يزداد ثراءً، ويكشف عن هموم الثقافة والقراءة في مجتمعنا، ارتفع صوت أذان المغرب، ليعلن نهاية البث، لا نهاية الأسئلة. انفض الجمع الصغير، الذي لم يتجاوز خمسة أشخاص، وغادر كل منا إلى شأنه، بينما بقيت ساحة تيك توك تضج بما اعتادت أن تضج به من محتوى عابر وضجيج لا يترك أثرًا.

قد يبدو العدد ضئيلًا، لكنني خرجت من ذلك البث مؤمنًا بأن خمسة أشخاص يتحاورون حول القراءة خير من آلاف يتنافسون على التفاهة. فالأفكار العظيمة لم تبدأ يومًا بالحشود، وإنما بدأت دائمًا بسؤال صادق، وعقل فضولي، وقارئ يؤمن أن المعرفة ليست وسيلة للوصول إلى الحياة، بل هي الحياة نفسها.

كيف ربى القرآن لسان العمانيين

في أحد ليالي شوال العظيمة، وفي نوبة ضيق وملل، تذكرت مصحفي، ولقد فترت عن مواصلة القراءة يومها، لكني قلت في نفسي: سأستغل هذا الوقت لتدبر الآيات التي يفتحها الله عليّ. فتحت المصحف بصورة مفاجئة مرتين، وفي كل مرة تخرج لي قصة موسى عليه السلام؛ في الأولى خرجت لي سورة الإسراء في الصفحة قبل الأخيرة، وفي المرة الثانية خرجت لي بدايات سورة القصص. وكنت قد سألت الله أن يكشف لي من أسرار القرآن لشدة ولعي بها، فسبحان الله، وقفت عند قوله تعالى في الآية 29 من سورة القصص: "فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله."...

وأثناء تدبري لهذه الآية، رجعت إلى تفسير الجلالين، فوجدت تفسيرًا عجيبًا لكلمة "أهله"، حيث بيّن أنها تعني: زوجته. فاستوقفتني هذه اللفظة البسيطة في ظاهرها، العميقة في دلالتها، وكيف أن القرآن الكريم يستخدمها في سياق راقٍ يجمع بين المعنى والحياء.
وعندما تعمقت في البحث كثيرا ،وجدت كلام الكثير من الأدباء العرب مثل الخليل بن أحمد الفراهيدي، بل زيادة

على ذلك، وجدت أن كلمة الأهل ويقصد بها الزوجة وردت في قصتين أخريتين، وهي قصة سيدنا إبراهيم وقصة سيدنا يوسف. ففي سورة يوسف وعلى لسان امرأة العزيز، يقول الله تعالى: (ما جزاء من أرادَ بِأهلِكَ سوءًا) أي بزوجتك.
وعن إبراهيم(عليه السلام) وفي قصته يقول الله تعالى: (فراغَ إِلَى أهْلهِ فَجاء بِعجْل سمينٍ(
علما أنه ليس مع إبراهيم غير زوجته. فهذه ثلاث مواضع في القرآن الكريم، ذكرت فيها لفظة الأهل كإشارة مجازية للزوجة .

ومن هنا تذكرت عادة متجذّرة في مجتمعنا العماني، حيث يعبر الرجل عن زوجته بلفظ "أهلي"، فيقول: "أنا مع أهلي"، دون أن يصرّح بلفظ "زوجتي"، وذلك حياءً ورفعة في التعبير. وهذا الأسلوب ليس مجرد عادة اجتماعية، بل هو امتداد حيّ للغة القرآن الكريم، التي تأدب بها الناس عبر الأجيال.

إن استخدام لفظ "أهله" يحمل في طياته معاني الستر، والاحترام، والخصوصية، ويعكس فهماً عميقًا لقيم الحياء التي دعا إليها الإسلام. بل وقد يكون في هذا التعبير نوع من الحماية المعنوية، حيث لا يُعرّف الرجل زوجته

تعريفًا مباشرًا أمام الآخرين، صونًا لها من أعين أو ألسنة قد لا تراعي حدود الأدب.

وهكذا، حين نتأمل في ألفاظنا اليومية، نجد أن كثيرًا منها مستقى من نور القرآن الكريم، حتى وإن لم نشعر بذلك. فهذه اللغة التي ننطق بها، وهذه العادات التي نمارسها، إنما هي امتداد لذلك النبع الصافي الذي لا ينضب .
وفي ختام هذا التأمل، فإن ما نلمسه من ارتباط عاداتنا العمانية بألفاظ القرآن ومعانيه، يدعونا إلى التمسك بهذه التقاليد الأصيلة التي لم تأتِ عبثًا، بل هي امتداد لجذور عميقة ضاربة في ديننا وثقافتنا. إن من واجبنا كعمانيين أن لا نكتفي بممارستها، بل أن نبحث في أصولها ومعانيها، لندرك قيمتها الحقيقية، ونزداد بها اعتزازًا وفخرًا.

كما تقع على عاتقنا مسؤولية عظيمة في نقل هذا الإرث إلى أبنائنا وأحفادنا، بتعليمهم هذه العادات، وشرح دلالاتها، وربطها بهويتهم الإسلامية والعمانية. فبقدر ما نغرس فيهم هذا الفهم، نضمن استمرار هذا النور جيلاً بعد جيل.

فلنعتز بعاداتنا، ولنتفاخر بها، ولنحرص على نشرها بين الناس، لا على أنها مجرد موروث، بل على أنها قيم نبيلة

مستمدة من نور القرآن، تحفظ للمجتمع توازنه، وتصون له هويته. فسبحان من جعل في تراثنا هذا الجمال، والحمد لله الذي هدانا للتمسك به.